روايات تيوليب للجيب

العدد (٦): قضية شرف

سُلاف الأمين

روايات تيوليب للجيب

العدد (٦): قضية شرف - سُلاف لمين

(الرواية الفائزة في مسابقة دار الفؤاد ومنتديات حكاوينا)

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠١٦

تصميم الغلاف: دعاء السيد

تدقيق لغوي: هبة النجار - تنسيق داخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

المدير العام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/١٦٧٧٥

سلسلة (تيوليب) عربية مئة في المائة، ولا تشوبها شبهة الترجمة أو النقل. تصدر بشكل دوري عن دار الفؤاد للنشر والتوزيع.

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing





روايات تيوليب للجيب

العدد (٦)

قضية شرف

(الرواية الفائزة بمسابقة دار الفؤاد ومنتدى حكاوينا)

سُلاف الأمين



♥ إهداء ♥

إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد لترى روايتي النور وتكون كتابًا منشورًا . .

إلى صديقات كن لي يدًا تدفعني للأمام، وسندًا يدعمني . .

(ريهام)، (نهى)، (وصال) . .

إلى أسرتي الصغيرة: بناتي ورداتي الثلاث، وزوجي . .

إلى والديّ وأخواتي وأخي . .

إلى كل فتاة تحافظ على شرفها ودينها في زمان اختلطت فيه مفاهيم الشرف.

إلى دار الفؤاد للنشر، ومنتدى (حكاوينا)، وعلى رأسهم (موني صلاح الدين) . .

إلى كل من سيشتري ويتبنى (قضية شرف) .

قضية شرف

أخذت أنفاسها مجددًا تملأ رئتيها التي تشعر أنها استنزفتها بالكامل من حماسها، وصوتها الذي علا دون إدراك منها، ابتلعت ريقها بينما تمسح بنظراتها القاعة الممتدة أمامها، يحتل كراسيها عدد مهول من النساء باختلاف أعمارهن، وبمختلف طبقاتهن وثقافتهن، ترصد مقدار تأثرهن من كلامها، رغم أنها ليست المرة الأولى التي تقوله فيها، فهذه المحاضرة تعد العاشرة بنفس الموضوع والعنوان، إلا أنها تقولها بنفس الحماس، ونفس التأثر، كأنما تقولها لأول مرة.

قالت بحدة أقل، وبصوت شحذت فيه من هدوئها الكثير:

- "هذا كله هو قضيتنا نحن، ونحن من علينا أن نفهمه أولاً، قبل أن نحمل راية توصيله للطرف الآخر، لأننا ببساطة نرفض أن نلبس رداء الضحية، كما نرفض أن تكبلنا سلاسل الظلم، فنحن بين الضحية، وبين الظالم. تفصلنا خطوة عن تلك، وخطوة عن الأخرى، لهذا أوجدنا قضيتنا للرأي العام، ندافع عنها بكل قوة.. فقضيتنا قضية.. شرف"

صمتت لتحل محل كلماتها تصفيق حار، جعل ابتسامة رضا ترتسم بخفة على شفتيها، لكن البريق الذي شع في عينيها كان أقوى دليل على رضاها التام بما قدمته اليوم، وبما جنته بتفهم النسوة الذي دل عليه هتافاتهن وتصفيقهن، بل وحتى أنها علت بعض الزغاريد فرحًا بقضيتها، التي هي قضيتهن.

بعد مدة كانت تعدل خمار رأسها الذي يغطيها إلى أسفل صدرها، ليحل محله حجابها الواسع من قماش رغم بساطته، إلا أنه يتهادى دالاً على نوعيته الفاخرة.. أخذت أوراقها بيد أخرى بعد أن انسحبت من على المنصة التي كانت قبل قليل محراب لنصرة بنات جلدتها، حاملة لواء توعيتهم لواجباتهم قبل حقوقهم.

ما إن تخطت الستارة الحمراء التي كانت تفصل القاعة عن المكان الخلفي للكواليس حتى رأت رئيسة جمعية حقوق المرأة لهذه المدينة، وهي تتجه نحوها بابتسامة عريضة.

مدت يدها بتحية، فمدت هي الأخرى يدها بابتسامتها العذبة، سمعت المرأة الأكبر سنًا تقول بفرح:

- "أهنئك سيدة (شرف) على النجاح المبهر، القاعة مازالت تضج بالهتافات والتصفيق.. هذا يدل على أنك لامست بكلامك وترًا حساسًا في كل امرأة حضرت المحاضرة"

هزت رأسها، وصبغة الحياء التي لونت خديها مازالت تهاجمها، رغم أنها تتقن فن الكلام والإقناع والحوارات، إلا أنها لا تعرف كيف تتعامل مع المديح مع أنها تسمعه مؤخرًا كثيرًا.

- "شكرًا سيدة (عواطف).. أنا من علي شكركم، لأنكم منحتم لي هذه الفرصة لأقدم المحاضرة هنا في قاعة المدينة"

مدت السيدة (عواطف) يدها بإشارة أرفقتها بكلامها:

- "تفضلي سيدتي.. أنت مدعوة مع أعضاء الجمعية النسائية إلى الغداء على شرف نجاح المحاضرة"

عادت للابتسام بحرج، عندما قالت:

- "آسفة جدًا.. أعتذر عن عدم مقدرتي على تلبية الدعوة، فزوجي ينتظرني، لأننا مرتبطان بزيارة بعض الأقارب بما أننا في مدينتي"

هزت (عواطف) رأسها بتفهم، قائلة:

- "أتفهم الأمر فأنت بمسقط رأسك، وأكيد لك هنا أقارب عدة، وهذا شيء يزيد من فخرنا أنك من هذه المنطقة، ومن مدينتنا التي تزداد فخرًا بانتمائك لها"

بعد بضع كلمات كان الوداع.. حملت حقيبتها الجلدية التي تحمل أوراقها الخاصة، وبعض المراجع.. وتقدمت بخطوات ثابتة نحو الخارج، وهي ترد تحية كل من قابلها. وما إن أصبحت في الشارع، حتى لفحها الهواء البارد الذي انبعث من جبال المدينة التي تحاوطها، والتي تزينت قممها بالثلوج.. أحست برعشة برد سرت على كامل جسمها، بينما تلتفت بنظراتها تبحث عنه.

أخيرًا وجدته ينظر إليها، وهو يتكئ بظهره على مقدمة السيارة، مكتفًا ذراعيه حول السترة الجلدية السوداء التي كان يرتديها، ولم تزده إلا إبرازًا لرجولته.

اتجهت نحوه، وما إن وصلت حتى بادرها بالتحية، وهو يفتح لها باب السيارة، ليكمل:

- "كيف كان التجاوب في المحاضرة؟"

أجابته، وهي تعتدل جالسة في مقعدها المجاور لمقعده الأمامي، بعد أن ردت تحيته:

- "كان ممتازًا"

التف حول السيارة، واستوى جالسًا في مقعده، وما إن شغل السيارة حتى عدل من درجة المكيف عله يخفف من شدة البرد التي كانت بالخارج، التفت للخلف وهو يحركها، بينما يسأل رغم أنه يعرف الإجابة:

- "هل أنت واثقة أنك تستطيعين الذهاب إلى هناك؟"

تنهدت بقولها، بينما أسبلت جفنيها ببطء:

- "ليس لدي خيارات عديدة.. أظن أنه حان موعد المواجهة، يكفي ما سبب الأمر من قطيعة للرحم.. لا أريد أن أحاسب عليها.. كما أن حقدي عليه لن يغير مما حدث"

ابتسم بمؤازرة ارتسمت في مقلتيه.. كانت دومًا تستمد منه قوتها، وما إن أخذت السيارة تلتهم الإسفلت، وظهرت لها الالتواءات المؤدية إلى قريتها الجبلية، حتى قالت بصوت ثلجي بارد، كأنها اغتصبته من عمق روحها الصقيعية التي دربت نفسها عليه، وهي تتوجه إلى مركز أَمَرِّ ذكرياتها.

- "هل يمكنك أن تتجه إلى اليمين قبل أن تدخل القرية؟"

التفت إليها باستفهام صامت، أجابته بعد أن ابتعدت بنظراتها عنه:

- "إنه مكان الحادثة القديمة.. أريد أن أعتذر هناك منها، بما أنك منعتني من الذهاب لزيارة قبرها"

لف يمينًا كما قالت، وبهدوء جاء صوته:

ـ "لن نتناقش الآن في زيارتك للمقابر، فأظن أن كلامي كان مقنعًا، والأدلة الشرعية كانت واضحة، لكن لن أحرمك من رغبتك طالما أنت مستعدة"

لحظات فقط، وركنت السيارة بعد مشقة، وهي تتجاوز الطريق الترابي الوعر.

نزلت بسرعة، وهي ترفع رأسها، وتستنشق عبق الجبال المحيطة بهم، التي امتزج فيها برودة الثلوج ورائحة التراب المبلل، وعبق بعض النباتات الشتوية التي كانت دليلاً على صمود كل ما يعيش هنا، لتتوج كل تلك الروائح رائحة حطب شجر السرو المحروق، الذي يخرج من مداخن المنازل في القرية التي مازلت تتميز ببيوتها الطينية، المقاومة للبرودة شتاء والحرارة صيفًا، والتي تتواجد غير بعيد عن مكانهم.

اتجهت وهي تلف ذراعيها حولها، تبعث لنفسها بعض الدفء، أو ربما تحاول حماية نفسها من صقيع الذكريات التي تقاذفتها ذات اليمين وذات الشمال، وتناست بعدها الزمان والمكان، لتعود إلى زمن ماضٍ.

☆☆☆

☆☆

☆

نظرت إلى الأسفل عندما سمعت الصوت الهادئ، لكنه معاتب:

ـ "لقد تسلقتِ لمسافة كبيرة.. انزلي الآن!"

كسا نظراتها بريق الشقاوة، بينما تنظر إلى الغصن الذي تنوي وضع قدمها عليه، لتواصل تسلق الشجرة العملاقة التي لطالما كانت تلهمها لتحدي وصول قمتها، ورؤية المكان من عليها.

ـ "ليس قبل أن أصل القمة! لم يتبقَ الكثير"

سمعت صوتها الذي ارتفع مرة أخرى:

ـ "انزلي الآن فورًا! أنت كبيرة على هذه الأعمال الشقية غير المسئولة.. ماذا سيقول عنك أهل القرية إن رآك أحدهم تتسلقين كالأطفال!؟"

مالت شفتاها لجانب واحد، وبتذمر قالت:

ـ "مازلت لا أفهم هل أنا كبيرة أم صغيرة!؟ إذا أردت أن ألهو قلتم (أنت كبيرة)، وإذا أردتم أن أرعى الأغنام صرت صغيرة على البقاء كالفتيات في المنزل! أريد أن أفهم الآن.. هل أنا كبيرة أم صغيرة!؟ حددوا الأمر، حتى أبرمج تصرفاتي"

صوتها ذو البحة الطبيعية حمل إليها ضحكتها العذبة عبر أثير الهواء إلى الأعلى، وكلامها القائل:

ـ "أظن أن عمر السادسة عشر صغير على المكوث في البيت، وكبير على تسلق الأشجار"

لم تلقِ لها الأخرى بالاً، فهي الآن تجلس على أحد الأغصان القوية، تنظر بانبهار إلى المناظر من حولها، إلى تلك الجبال العالية، كيف احتوت في سفوحها تلك القرى الصغيرة المتفرقة، كأنها أم بسطت حجرها لولدها، وظلها ينعكس عليها، تحميها حتى من لهيب شمس الصيف الحارقة.

أغمضت عينيها، وهي تملأ رئتيها بهواء الأعالي النقي الذي حمل معه قطرات ندى الصباح، قبل أن تبسط شمس الضحى هيمنتها بحرارتها الصيفية اللاهبة، ورائحة نباتات الخزامى التي تزاحمها أزهار نبتة الدفلى وتملأ أسفل الوادي الذي يشدو خرير مياهه، لتكتمل به لوحة الإبداع الإلهي العظيم.

بعد أن تشبعت من كل ذلك، حان وقت النزول؛ لأن شمس الضحى قد بدأت هيمنتها، وعليها أن تعيد الأغنام إلى مكان الشرب، قبل أن تعيدها إلى المنزل، لكن ما لم تحسب له حسابًا أن النزول هو أمر شاق أكثر من الصعود، لكنها قوَّت نفسها، وهي تستمع لتشجيع الأخرى التي كان رأسها يرتفع للنظر إليها بخوف ظهر في نبرة صوتها، وما إن بقي لها بضع أمتار على أن تحط على الأرض، حتى انكسر بها أحد الأغصان، وتهاوت نزولاً تسبقها صرختها الخائفة. لكنها لم تشعر بصلابة الأرض رغم قوة ارتطامها، والذي عرفت تحليله عندما وجدت رفيقتها تحتها تمامًا، وتذكرت أنها تعمدت أن تساعدها، وتخفف عنها.

☆

☆☆

☆☆☆

شعرت بيديه الدافئتين تحطان على كتفيها، تخففان من ارتعاشتها التي سببتها تلك الذكريات التي عصفت بها، كرياح سيبيرية، لم تعتد أن تعيقها الأشياء.

نظر إليها بسكون، لكن نظراته كانت حانية تمدها بالقوة، فلم يكن ليتركها تعاني ويلات ماضيها المعذب، فقد عانت منه أكثر

من اللازم، وهو لا يريد أن تعود لضعفها ذلك، رغم أنه سبب تعارفهما وزواجهما.

اقتربت منه.. لم تكن لتكتفي بيديه رغم الدفء الذي سرى في جسدها منهما، ورغم أنهما استطاعا أن يوقفا تلك الرعشة التي هزت كيانها، لكنها تريد أكثر، فاندست بين أحضانه كرضيع يطلب حضن أمه. وضعت جانب وجهها على صدره، عل نبضاته تمدها بالقوة، كما اعتادت دومًا، بينما لف هو ذراعيه يطوقها أكثر، متانسيًا رعشته بقربها منه. أخيرًا أبعدها عنه برفق، قائلاً بحنو:

- "هل نذهب الآن إلى القرية؟"

هزت رأسها بنعم، دون أن تتكلم، ليس لأنها لا تريد، لكن تلك الغصة التي استوطنت حلقها من ألم ماضٍ تصور لها ببشاعته جعلها غير قادرة على نطق حرف واحد دون أن تنفجر بالبكاء.

تبعته إلى السيارة، وما إن استقرا داخلها، حتى بدأت رحلتهما القصيرة عبر الطريق الترابي الذي بللته بعض قطرات المطر الخفيفة، لتبعث رائحة الطين المبلل الذي أنعش رئتيهما، في حنين دفين إلى الأم التي خُلقنا منها، والطين والماء اللذان بتمازجهما كوّنا أول البشر وأب البشرية الذي شرفه الله بأن خلقه بيديه.

☆☆☆

كان على السيارة أن تركن بعيدًا عن المنزل قليلاً، حتى يكملا السير عبر الارتفاع البسيط إليه على الأقدام، وما إن ظهر لهما

باب البيت حتى توقفت.. رفعت نظراتها إليه.. إنه نفس البيت الذي كبرت وقضت أكثر من ستة عشر عامًا فيه، وها هي تعود إليه بعد هجران عشر سنوات كاملة... يا الله كم بدت وكأن تلك الأعوام العشرة لم تمر بالمنزل كما مرت بها! لم تؤثر فيه كما أثرت بها.. كم تغبطه على أنه جماد لا مشاعر له، وكم حزنت أن لتلك السنين من الهجران آثار كأنها خدوش متقيحة، انفجرت الآن بسيلانها، لتغرق روحها، وتبث فيها آلامًا امتزجت بين الشوق والحزن. وها هي صورة المنزل الطيني الذي بدا كأنه يزداد صلابة كل عام تنتقل بها إلى سنين عشر ماضية، كانت فيه الزينة المتدلية منه، ورائحة وليمة العشاء بتلك الخراف التي ذبحت خصيصًا لذلك، والأضواء المعلقة على جدرانه بألوانها الزاهية، تنير المكان لتتجه إلى الساحة المحيطة به، وأصوات الزغاريد لا تنافسها إلا أصوات الطبول، وأهازيج الفتيات اللاتي ينشدن أغاني خصيصًا لمثل هذه المناسبة السعيدة، لا تخلو من مديح الزوج حينًا، لترتفع بمديح الزوجة أحيانًا أخرى.

وكأنها تعيش الماضي بكل حذافيره، وهي تركض بزهو بين الغرف تؤدي واجبها تمامًا كأخت العريس، وصديقة مقربة من العروس. رغم أنها تفوقها بثلاثة سنوات إلا أنهما كانتا دومًا مقربتين جدًا، فستانها التقليدي الذي حوى بهجة الألوان، وكان ما يميزه تلك الألوان كدليل معبر عن مناسبة كهذه، تتنوع بها الأفراح، وتتلون بألوان مبهجة مفرحة.. أمسكت بها أحد جاراتها، قبل أن تغادر الغرفة التي تعج بالضيوف النساء اللاتي لم يحتجن لدعوة أو كروت مزينة ليحضرن، ما إن يعرفن أن

العرس في أحد منازل القرية، حتى يتجهن إليه محملين بأطيب وأصدق المشاعر، وبكل ما جادت به أنفسهن بكرمها لمساعدة في مثل هذه المناسبة.. سمعتها بصعوبة بسبب ارتفاع أصوات الأناشيد والطبول، وهي تشير إلى وسط المكان تطلب منها الرقص، ابتسمت بحبور وحياء خفيف، وهي تلتفت لترى الجميع ينتظر من شقيقة العريس أن تبدي فرحتها بالرقص، كما تعودوا على ذلك، فما كان منها إلا أن اتجهت إلى وسط الحلقة الكبيرة، والتقطت الشال الذي ألقته إحداهن نحوها، وبدأت بالتمايل على صوت الطبول بإتقان متناهٍ، ليجعل الجميع يصفقن بحماس، وابتسامة فرحة تعلو ثغرها الذي تلون لأول مرة باللون الزهري بصبغة صناعية، سُمح لها بها فقط لأجل هذه المناسبة.

لم يكن صوت زوجها الآن أو لمساته من أعادتها إلى حاضرها، إنما صوت رقيق ناعم طفولي يهمس بحياء:

- "عمتي (شرف)"

التفتت إلى الطفلة التي كانت وكأنها تنتظرهما أمام الباب الخارجي لساحة المنزل، لم تبال بتلك الأمطار الخفيفة، ولا النسمات الباردة التي جعلت شفتيها تتلونان باللون القرمزي.

كم بدت تشبهها في صغرها، بل إنها نسخة منها، بشعرها الكستنائي المجدول بجديلة كبيرة جانبية، وكأنها تعيد طفولتها الآن، وبياض وجهها الذي يناقض حمرة خديها الطبيعيتين، واللتان تزيدان تلونًا عند الشعور بالبرد، فمها الصغير، وقدها الرفيع رغم طوله الذي يخالف سنها.. باختصار كانت مرآة لها في صغرها، تأكدت أنها ابنة شقيقها.

سمعتها تعيد قولها، كأنها تتأكد مما قالته:

"عمتي (شرف)!؟"

ألقت بالتفاتة إلى زوجها، وهي تبتسم بقولها:

- "تمتع بمشاهدة زوجتك عندما كانت صغيرة، فهذه نسخة مني"

قهقهة صدرت منه، وقوله الذي أردفه جعلها تحمر خجلاً:

- "لم أكن أعلم أنك فاتنة منذ الصغر"

عادت تلتفت إلى الصغيرة تخفي خجلها الذي لم يغادرها رغم السنين، ثم فتحت ذراعيها ترحيبًا بها، وجوابًا على سؤالها، فما كان من الأخرى إلا الركض، وإلقاء نفسها بين أحضانها، حتى أن توازنها اختل، لكنها تداركت الأمر وهي تعتدل، وتضمها لنفسها أكثر، بينما تدعو في نفسها أن يسامحها الله على قطيعتها التي جعلتها لا تعرف حتى اسم من دعتها للتو بلقب عمتي.

شعرت أن أحدًا غيرهم يراقبها، رفعت رأسها إلى الأمام، لتصطدم نظراتها بذلك الواقف أمام المنزل ينظر إليها نظرات لم تتبينها، وملامحه ساكنة. رفعت نفسها، وأبعدت الطفلة عنها قليلاً، بينما بحركة لا إرادية كانت تقترب من زوجها.

كم غيرته السنوات، بدا أكبر سنًا.. أيعقل أن عشر سنوات جعلته يبدو هكذا!؟ هل ازداد طولاً أم أن عضلاته البارزة جعلته يبدو

كذلك!؟ مقدمة رأسه فقدت الكثير من الشعر، والشعرات البيضاء رغم تناثرها إلا أنها ميزتها في عوارضه.. كم بدا شبيهًا بوالدهما -رحمه الله. عندما وصلت بتفكيرها إلى والدها شعرت بالحنين إليه، إلى وجوده، بل إلى أهمية قراراته.. أيعقل أنه لو كان على قيد الحياة لما حدث ما حدث!؟ لم يكن ليسمح لتلك اليتيمة التي اختارها هو أن تنتهِ كما انتهت... ازدردت ريقها كأن شظية زجاج عالقة بحلقها أدمت كل بلعومها مع ابتلاع ريقها، وأغمضت عينيها، وذكرياتها تأخذها إلى أبعد من صورة والدها، لكن صوته مجددًا يخرجها من غياهب الماضي.

- "(شرف)، ألن تسلمي عليه!؟"

وكأن ما قاله يحتاج لترجمان، نظرت إليه بعينين واسعتين، علها تميز ما يقول! رمشت مرتين، وهي تعود لواقعها، لتجعلها ابتسامته تتلقى شيئًا من السكينة، ثم عادت بنظرها إلى ذلك الجسد الواقف ينتظر أي خطوة منها، يحاول أن يشتت نظراته عن وجهها، لكن نظراته تلك الخائنة تأبى إلا أن تمكث هناك، تتربع وتستريح لتخونه روحه، ودقات قلبه، واهتزازة جسده الذي يهتز مع قوة الذنب. سمع صوت ابنته التي ما أن رأته حتى ركضت إليه تخبره بوصول عمتها، وكأنه يحتاج لأحد كي يخبره عنها، وهو الذي شعر بها قبل حتى أن تصل، كيف لا وهي شقيقته الصغرى التي كان يُكن لها حبًا عظيمًا، قبل أن يكسرها، ويكسر معها أمورًا أخرى، مازالت آثارها المدمرة تشوهه حتى الآن.

رأى تقدمها الذي يقوده زوجها الممسك بعضدها.. لم يقو أكثر على المكوث في مكانه، فخطت قدماه خطوات مترددة متذبذبة، كتلك الدمعة المتعلقة بأهدابه، يقاوم تذبذبها بصلابة واهية.. عندما التقيا، ولم تعد تفصلهما إلا بعض الخطوات، مد صهره يده بابتسامة، فتلقاها هو فورًا، وهو يرحب به.

- "السلام عليكم.. أهلا بك يا (عبد العزيز).. نورت القرية بتواجدك"

رد الآخر بحبور:

- "وعليكم السلام.. القرية منيرة بأهلها"

ما إن سحب يده منه، حتى التفت لتلك التي تحاول أن تنظر إلى كل شيء عداه، كان هو من بادر بسؤاله:

- "كيف حالك؟ أنرتِ قريتك (شرف)"

التقت نظراتهما بوجل، لكنها سرعان ما أخفضتها، وهي تمد يدها إليه بتحية باردة، تماثل تلك الرياح التي هبت للتو، تحمل معها صقيع الثلوج التي تستكين في قمم الجبال التي تحيط بالقرية.

مد يده لتتلقف يدها الباردة، وتتوزع حرارة يده عبر ذرات جسدها.. هل هو أمان الأخ أم أنها تتصور ذلك!؟ هل هو دفء العائلة أم أنه لم يعد لتلك الكلمة ترجمان أمامه بعد ما حدث!؟ لكن أسئلتها لم تطل عندما وجدت نفسها بين أحضانه، فهو لم يكن ليكتفي بعد عشر سنين بتحية الأيدي تلك، دون أن يخمد شوقه الجارف بأن تتلاقي نبضات القلوب.

ارتجافة جسدها زادت، وهي تستشعر حنانه الذي لطالما نهلت منه، حبه المميز لها، دلاله الخاص بها دونًا عن شقيقتيها، لكن كل ذلك كان قبل أن يجرم في حقها، وحق نفسه، وحق توأم روحها.

استكانت فورًا، وهي تسمع همسته التي لولا أن أنفاسه كانت دليلاً عليها، لكذبت سمعها فورًا.

ـ "أنا آسف لكل ما فعلته"

ابتعدت عنه، نظرت إلى وجهه، كأنها تستشف صدق ما سمعت من تعابيره، وكم هالها منظر تلك الدمعة التي سالت ببطء على خده، وما إن لمحتها، حتى غابت في كفه، وهو يرسم ابتسامة خرجت رغمًا عنه مرتجفة.

ـ "هيا إلى الداخل.. الكل بانتظاركما"

وسبقهما بخطواته الواسعة، لتلتفت هي إلى الذراع التي طوقت كتفيها، وهي تحثها على التقدم نحو المكان الذي هجرته منذ سنوات.

☆☆☆

ابتعدت بصعوبة عن أحضان والدتها، فبعد أن سلمت عليها، وعلى زوجة شقيقها، عادت لترتمي في أحضانها مجددًا. فرغم أن والدتها كانت تزورها منذ عادت من سفرها، لكن أن تقابلها في هذا المنزل جعلها تشعر بحنين إلى طفولتها، إلى أيام كانت تنام في أحضانها الدافئة، تستنشق عبير الأمومة منها.

سمعتها وهي تحثها على الجلوس في الجلسة العربية الحديثة، فهي للتو اكتشفت أن المنزل تغير كثيرًا، على الأقل من الداخل، حيث أصبح أكثر تحضرًا وجمالاً.

- "اجلسي صغيرتي"

جلست، وهي للتو تتذكر زوجها، نظرت حولها لتجده يهم بالجلوس أيضًا حيث دعته والدتها، ابتسمت وهي ترى خجل والدتها.. فهي كدأب الكثير من العجائز في قريتها تخجل من أزواج بناتها، وتحدثه برسمية زائدة، عادت تسمعها تقول:

- "سأعود حالاً.. سأحضر شيئًا دافئًا لكما.. أكيدة أن البرد تمكن من عظامكما قبل أن تصلا هنا"

حاولت منعها، وهي تشرح أن السيارة دافئة، لكن ما كانت العجوز لتقتنع.

التفتت لـ(عبد العزيز) قائلة:

- "كيف وجدت المنزل؟ إنه متواضع كما أخبرتك، رغم التجديدات التي حدثت فيه"

هز رأسه نافيًا:

- "بالعكس لقد أحببته، راودني فيه شعور بالألفة والحميمية"

مد يده واضعًا إياها على خدها، وأكمل بصوت حمل كمًا هائلاً من عاطفته:

- "يكفي أنه احتوى حبيبتي لسنين عدة، واحتوى أجمل أيام طفولتها"

كان دومًا بارعًا في الكلام وإلجامها، فما وجدت إلا أن ابتسمت له، وهي تضع كفها على كفه.

لكنها سحبتها بسرعة عندما رأت الصغيرة تدخل عليهما بسرعة، ودون أن يشعرا بها.

ما إن وصلت حتى وقفت بتردد، كأنها تنتظر دعوة من عمتها التي علمت ما يجول في خاطر الصغيرة، فأشارت لها إلى المكان بقربها، وهي تربت عليه.

- "تعالي صغيرتي.. اجلسي بقربي"

ما إن استوت جالسة، حتى بادرتها بحب:

- "كم عمرك؟"

ردت الأخرى، وهي ترفع أصابع يد واحدة، وتكمل بإصبع من الأخرى.

ضحكت (شرف) بخفة:

- "ما شاء الله.. ست سنوات.. إذن أنت تدرسين"

حركت الصغيرة رأسها بإيجاب، وهي تشير إلى أحد أركان الغرفة.

- "نعم في المدرسة هناك.. خلف منزلنا حيث يعمل والدي"

نظرت إلى زوجها المبتسم من الحوار، ثم عادت تسأل:

- "ما اسمك؟ أنت لم تخبريني به.. أقصد ذكريني به"

وقفت الصغيرة، وهي تسمع صوت جدتها يناديها.

- "اسمي (غالية).. سأعود حالاً.. جدتي تناديني"

"غالية!... غالية!"... تردد الاسم الذي سمعته من والدتها، قبل أن تنطق به الصغيرة في روحها، قبل سمعها.. ما إن اختفت الطفلة، حتى وقفت بعنف بحركة واحدة.

- "اسمها (غالية)! هل.. هل سمعت (عبده)؟ اسمها (غالية)"

وقف (عبد العزيز)، وهو يحاول أن يحتوي ثورتها التي يعلم سببها.

- "اهدئي حبيبتي"

التفتت إليها بعينين زائغتين، بينما حروفها المرتجفة تخرج بغير انتظام.

- "اسمها (غالية).. ذبح (غالية).. هو من ذبحها.. أسمى ابنته عليها.. لكن لماذا!؟ لماذا يفعل ذلك!؟"

أمسك كلتا يديها المرتعشتين، وبصوته العميق:

- "وهذا يدل أنه...."

قاطعته بحدة، وهي تسحب كفيها من دفء يده:

- "يدل أنه يقتل القتيل، ويتصدر جنازته"

عاد يجذب كفيها، رغم محاولتها غير الواعية لإبعادهما، وقال:

- "لمَ لا تقولين أنه يدل على ندمه!؟ فليس سهلاً أن يسمي الرجل ابنته على اسم زوجته الأولى، والتي هي أكبر بناته، ومن زوجة أخرى"

عادت نظراتها تتسع، وكأن عينيها الواسعتين مازال بمقدورها الاتساع المذهل الآسر، وبتعجب رددت:

- "ندمه!!..."

استكانت، وهي ترى إيماءته الخفيفة، لتعود مجددًا تردد:

- "ندمه..."

قاطعها صوت الباب الذي طرق بخفة، ليُفتح بعدها، وتدخل والدتها تحمل صينية بيدها.

التفتت لها، وتقدمت منها، وهي تأخذها منها، وتجلس حيث سبقها زوجها بالجلوس، دون أن تنطق كلمة.

أخذت والدتها الإبريق بعد أن جلست على الأرض التي تغطيها زربية يدوية، كانت من صنع أناملها التي رغم الكبر إلا أنها مازلت تبدع بتلك الحرفة التقليدية الأصيلة، والتي تتفنن بمزج الألوان بحرفيه حذقة، وكأنها تتبع مخططًا ما، لينتج عن ذلك التمازج فرسان يرفعان قائمتيهما الأماميتين على حافتها، بينما تتوسطهما نخلة باسقة. كانت فعلاً نموذجًا من أعمال الحياكة والنسيج المبدع، الذي تشتهر به نساء المنطقة.

- "هذا حليب طازج حلبته منذ ساعة فقط، طبخته للتو مع بعض إكليل الجبل.. إنه دافئ.. سيشعركما بالدفء، ويمدكما بالطاقة"

مدت يدها بكوب الحليب إلى (عبد العزيز).. الذي أخذه منها، وهو يشكرها، ثم عادت لتصب آخر مدته لـ(شرف).. التي أخذته بامتنان، وهي تستنشق رائحته التي افتقدتها، ثم ارتشفته بنهم.

☆☆☆

وقف يسد الباب للحظات، قبل أن يتجاوزه، وهو ينظر إليها تحمل كوب الحليب بكلتا يديها، تنشد الدفء منه.. صغيرته مدللته التي افتقدها.. تلك السنون التي غيرت منه الكثير، بالكاد مرت عليها فقط لتزيدها أنوثة، وتبقي على الكثير من رقتها وبراءتها التي مازالت تلمع في مقلتيها عند ابتسامتها. كم أراد أن يسرع نحوها، ويجثو على ركبتيه يخبرها كم كان تائهًا دونها، تائه بعد ما فعله.. يدور دون هدف.. يرجو فقط لو عادت به الأيام، لتفهمه أكثر.. لكان أوعى مما كان عليه، لكنه بتخليها عنه جعلته كمن يدور تائهًا يبحث عن شيء فقده... كم كان فقده عظيمًا.

تقدم ما إن أحس أنها شعرت به، وهي ترفع نظراتها له، لتعاود النظر إلى يديها، وتغوص في صمتها الذي كان غريبًا عليه.

☆☆☆

رأته يجلس بالقرب منها، لا يفصلهما سوى ابنته التي سبقته بالجلوس بقربها.

أخذ يتجاذب بعض الحوارات مع زوجها، ثم سأله إن كانا قد قررا المكوث في البلاد هذه المرة أم أنهما سيعودان إلى الخارج.

لا تعلم لمَ شعرت بصوته يتهدج عندما كان يلقي سؤاله، أم أنها محض تخيلات، لكن تخيلاتها عادت عندما أجابه زوجها بأنهما قررا المكوث، فيكفي أربع سنوات من التجول والتنقل من بلد إلى آخر، طلبًا لإكمال الدراسة، ثم للعمل، فرد بصوت حمل الكثير من البهجة:

- "الحمد لله.. فعلاً يكفي كل تلك السنين من الغربة"

لا لم تتخيل هذه المرة، فصوته فعلاً كان مبتهجًا، ما إن رد عليه (عبد العزيز) بقرار البقاء.

لم تتحدث إليه، كما أنه لم يحاول أن يفتح معها باب الحوار... وهل كانت هي مستعدة لأي حوار قبل أن يصفيا حسابهما القديم!؟

سمعته يقول، وهو يقف:

- "هيا يا (عبد العزيز) إلى المسجد، فالشمس أشرفت على المغيب.. نصلي هناك ونعود"

التفت إلى والدته، وأكمل:

- "حضّرن العشاء ريثما نعود من الصلاة"

وقف (عبد العزيز) من فوره، واتجه يتبعه، وبقيت هي تنظر في أعقابهما، وصوت الماضي يعيدها إليه.

حيث ما زالت صرختها أثر سقوطها عالقة في مسامعها..

☆☆☆

☆☆

☆

ما إن رأت أنها سقطت على صديقتها حتى ابتعدت زحفًا، والخوف يتملك أحرفها:

- "(غالية)! هل أنت بخير؟"

كانت (غالية) شبه جالسة.. تمد كفيها إلى الخلف تستند عليهما، وهي مغلقة العنين يظهر على ملامحها التألم.

حاولت أن ترسم ابتسامة.. خرجت مشوهة بندبات آلام مكتومة.

- "لا تقلقي.. أنا بخير.. ماذا عنك؟"

اعتدلت (شرف) في جلستها، وهي تمسح خدوشًا على ركبتها وأسفل ساقها إثر تكسر الجذع، واحتكاكها عند سقوطها بالأرض.

- "أنا بخير لو استثنينا هذه الخدوش البسيطة"

مدت يدها التي لم يسلم كفها من بعض الخدوش إلى تلك التي مازلت تغمض عينيها، تحبس آلامًا لا تريد الإفصاح عنها.

- "هيا (غالية).. هاتي يدك لأساعدك على الوقوف"

فتحت الأخرى عينيها، وهي تمد يدها.. وما إن استوت واقفة حتى أحست بألم لم تقوَ معه حتى على الاعتدال في وقفتها. مدت قدمها بخطوة لتتحرك، فخرجت منها الآه التي جعلت (شرف) تنظر إليها، وتشهق بقولها:

- "(غالية)، إنها آثار دماء على فستانك!"

☆

☆☆

☆☆☆

صوت زوجة أخيها هذه المرة من انتشلها مع أعماق سرداب الماضي التي خطتها خيوط عناكب، نسجتها لتحبس بها أوجاع ذكرياتها، وتنتشر معها رائحة الألم، وطعم المرارة.

قالت بعد أن تفرست في ملامحها لوهلة:

- "آسفة.. لم أنتبه لك ولما قلته"

ابتسمت الأخرى بود، بينما أعادت ما قالته لها، وهي تميل لتضع بعض الصحون على المائدة التي لم تنتبه أنها وضعتها إلا الآن.

- "سألت إن كنت ستتناولين العشاء معي أنا وخالتي أم مع زوجك وأخيك؟"

عادت بعض الدماء إلى وجهها بعد أن شحب من الذكريات، وقفت تعرض مساعدتها، وهي ترد على سؤال المرأة أمامها:

- "لا.. سأتناوله معكما طبعًا.. مالي وحشرة الرجال وكلامهم!؟" (ابتسمت وهي تكمل) "هاتي عنك.. سأعد أنا المائدة"

قدمت لها الأخرى الصحون والملاعق والشوك، وذهبت بينما تتحدث:

- "رتبي هذه.. سأجلب ما تبقى"

وما إن أكملا تجهيز المائدة، حتى تذكرت صلاة المغرب متسائلة إن كان قد رُفع صوت الأذان.

- "هل أُذّن لصلاة المغرب؟"

نظرت إليها الأخرى بتعجب، لكنها لم تطل وهي تجيبها:

- "نعم، منذ قليل سمعنا الأذان.. أم أنك لم تنتبهي!؟"

هزت رأسها، وهي تتجه إلى المغاسل التي تظن أنها في مكانها كما كانت منذ طفولتها:

- "شردت قليلاً، ولم أنتبه له.. سأذهب لأجدد وضوئي، وأصلي قبل عودتهما"

☆☆☆

بعد العشاء، ورغم أن السهرة في بدايتها إلا أنها تعذرت بتعبها، وذهبت لتنام.

تبعتها والدتها إلى غرفتها التي قضت فيها سنينًا من طفولتها ومراهقتها.

- "لمَ لمْ تبقي قليلاً للسمر مع شقيقك وزوجته.. (شرف)!؟"

التفت إليها بعد أن مسحت بنظراتها كل أركان الغرفة.. مازالت كما هي.. بخزانتها الصغيرة، والصندوق الخشبي الكبير المزين أطرافه بنقوش (الأرابيسك)، والمرآة المتوسطة التي عُلقت على الجدار، والسرير الحديدي الصغير المرتفع، وتلك الصور التي حوت مناظر طبيعية وأزهار برية تزين الجدار أعلى السرير مباشرة، والنافذة الحديدية الصغيرة التي تقبع أسفلها طاولة يستكين أمامها كرسي خشبي متهالك.. كانت تستعملها كمكتب لها.

- "الأيام قادمة أمي.. لكني اليوم فعلاً أشعر بالإرهاق"

هزت والدتها رأسها، ثم بعدها ابتسمت، وهي تتقدم منها:

- "إنها كما تركتها.. رفضت أن يغيروا أي شيء فيها.. حتى طلاء الجدران رفضته، وطلبت من (خالد) أن يتركها كما هي، فقط كانت (مريم) زوجته تنظفها من حين إلى آخر، وتفتح النافذة لتتشبع بأشعة الشمس"

ظهرت ابتسامتها، وبصوت أظهر نبرة الامتنان:

- "شكرًا أمي.. لا تعلمين كم أبهجني أن وجدتها كما تركتها.. وشكرًا لـ(مريم) أنها اهتمت بنظافتها"

اقتربت منها والدتها، وضمتها إلى صدرها بحنان، إنها أصغر أبنائها.. مدللتها التي لم تتخيل أن تراها مرة أخرى أمامها بكامل عافيتها.. كانت قد أسلمت أمرها لله رغم أملها ورجائها له.. لكن أن تراها هكذا أكبر مما تخيلته.. همهمت بالحمد لله والشكر، ثم أردفت:

- "الحمد لله يا (شرف).. أن أمد الله في عمري حتى رأيتك هنا من جديد"

ابتعدت قليلاً عن أحضانها، وهي تمد يدها لتحتضن كفها، رفعته إلى شفتيها، وغرست به قُبلاً عديدة بهدوء وروية:

- "أطال الله عمرك في طاعته أمي! وحتى تري أولادي، بل وتزوجينهم أنت"

ابتسامة حزينة ارتسمت على ثغرها، تزامنت مع أناملها التي ارتفعت لتمسح دمعة خانت تلك الأهداب، وتمادت نزولاً، غير مبالية بتلك التجاعيد التي أبى الزمن أن يرسمها حول تلك العينين، التي ذرفت على ابنتها الكثير من الدموع.

استبدلت تلك الابتسامة بأخرى أكثر إشراقًا، وأردفت:

- "سأذهب وأحضر لك ولزوجك فراشًا جديدًا.. لن أتاخر.. سأعود حالاً"

وافقتها بهزة من رأسها، ثم اتجهت إلى السرير، وجلست عليها، وذكرياتها تتجه إلى زمن مضى.. كان له الأثر الأبرز في رسم كل مسارات حياتها.

☆☆☆

☆☆

☆

علت ضحكاتها الطفولية المرحة، وهي تحوم حول صديقتها التي تسير بهدوء، لتكمل من بين ضحكاتها:

- "لن أخبرك حتى تأتي معي إلى أشجار اللوز بعد أن ننتهِ من ملء دلاء الماء"

أكملت الأخرى السير، وكأن تلك التي تقفز أمامها تارة، وخلفها أخرى غير متواجدة، لكنها ردت كدليل أنها سمعتها:

- "لن أذهب إلى أشجار اللوز.. يجب أن أعود باكرًا؛ فأمي أخبرتني ألا أتاخر؛ لأنها تريد مني أعمالاً أخرى في المنزل.. كما أنه لا يهمني ما سمعته بين والدتك ووالدك"

توقفت وهي تحط كلتا يديها على جانبي خصرها، وبتذمر واضح، وهي تمتص شفتيها إلى الداخل:

- "تبًا لك! ألا تملكين ولو القليل من الفضول (غالية)!؟"

ضحكت (غالية) بهدوء، دون أن تتوقف في سيرها:

- "لا، لا أملك القليل من الفضول؛ لأنني أعلم يقينًا أنك ستخبرينني الآن.. فلا أتوقع أنك ستصبرين وأنت تحملين في صدرك سرًا بهذا الحجم"

وأكملت ضحكتها.

ضربت (شرف) الأرض بقدمها دليل تذمرها، لكنها عادت تلحق بـ(غالية)، وهي تشاركها الضحك، لكنها سبقتها فجأة، ووقفت أمامها مباشرة تسد عليها تقدمها، وقالت وهي ترفع أحد حاجبيها:

- "هل تعلمين لمَ طلبت منك والدتك العودة، وما ستطلبه منك؟"

هزت كتفيها بلا اهتمام:

- "وهل تعلمين أنت؟"

بمكر أشعت به حدقتا عينيها، لتلمع الشيكولاتة الذائبة بلونها المميز فيهما:

- "طبعًا، وهل تستهينين بقدراتي وذكائي!؟"

أزاحتها من أمامها برفق، وأكملت سيرها:

- "إذن أخبريني يا صاحبة القدرات المذهلة"

وقفت وأكملت بتهديد، وهي ترفع إصبعها في وجهها.. تتسلح بمظهر الجادة، رغم خيانة نظرات عينيها التي تشع مرحًا:

- "وإياك أن تساومي لأجل ذلك.. فلن أذهب معك إلى أي مكان"

علت ضحكة (شرف)، حتى أنها كتمتها، وهي تنظر من حولها، خوفًا أن يكون أحد قد سمعها.

تنهدت براحة وهي ترى الطريق خاليًا إلا منهما، وأكملت سيرها وقولها معًا:

- "لا.. فقد أيقنت أنك اليوم لست بمزاج للمساومة"

تبعتها الأخرى وهي تبتسم.. تنتظر أن تخبرها، لكن صمتها طال، فاستحثتها على الكلام:

- "هيا.. ألن تخبريني؟ نكاد نصل إلى منبع الماء.. سيكون مليئًا بالنسوة والفتيات"

تنحنحت (شرف) كأنها ستلقي للتو محاضرة، وقالت بصوت واثق:

- "سمعت أبي يخبر أمي.. وقبل أن تبدئي بلومي على استماعي، فأنا كنت قريبة منهما أحاول استذكار دروسي، وهما من تحدثا أمامي" (أكملت بعدها) "أخبرها أبي أنه سيزور منزلكم الليلة"

توقفت (غالية) عن السير، وألف علامة استفهام حاوطت رأسها:

-سيزورنا! ممم.. اليوم!؟ لكن لمَ!؟ وهل هذا هو سبب استعجال أمي لي!؟ ربما لأرتب معها المنزل"

أجابتها الأخرى بنبرة واثقة:

- "طبعًا هذا هو السبب.. لكن ما يهمني أن تعرفي سبب الزيارة"

تبادلتا نظرات بين المترقبة والمرحة، ثم قطعت الصمت (غالية) التي علمت أن (شرف) لن تتحدث، حتى تطلب منها ذلك:

- "وما هو السبب؟"

ابتسمت (شرف) بنصر:

- "وأخيرًا حركت فيك شيئًا من الفضول" (وأكملت بمرح) "أطلب الله أن يعين (خالد) عليك عندما تتزوجان؛ فأنت كتلة من الجليد"

تلون خداها بحمرة قانية، وارتفعت يدها بحركة لا إرادية تعدل خمار رأسها، وقبل أن تعاتبها على ما قالت، أكملت بمكر، وبصوت يكتم ضحكته:

- "يا إلهي! كل هذا الارتباك لذكر اسمه!؟ ماذا لو علمت أنه عاد هذا الصباح، وسيأتي مع أبي اليوم لمنزلكم لخطبة فتاة الجليد رسميًا؟"

وغادرت ركضًا بطريقة ملتوية، وهي تلتفت من حين إلى آخر إلى تلك التي تسمرت قدماها على الأرض الترابية، وحمرة خديها تنتشر لتلون كامل جسدها، وهي تعيد في عقلها ما سمعته للتو.. همست بصوت متقطع:

- "سيخطبني اليوم!"

بعدها غطت وجهها بكفيها تخبئ بهما ابتسامتها العريضة التي ارتسمت على ثغرها.. حين سمعت صوت الأخرى المرح:

- "لا داعي لأن تخفيها.. فقد رأيتها"

☆

☆☆

☆☆☆

كان صوت أزيز سريرها هو من أعادها لواقعها، فالتفتت لترى (عبد العزيز) يجلس بقربها.

لم تنتبه لدخوله، ولا حتى لاقترابه.. ابتسمت بارتباك، وصدى ذكرياتها مازال وقعه على كل حركاتها.

- "آسفة.. لم أنتبه لدخولك"

ثم انتبهت لكومة الفراش على الأرض، لتكتشف أنها لم تنتبه حتى لدخول والدتها.

قال، وهو ينظر إلى حيث تنظر:

- "وضعته بعد أن حاولت أن تتحدث معك، وتخبرك أن تتولي أنت أمر الفراش"

وقفت بارتباك، وهي تقول بمثله:

- "سأفرش لي فراشًا أرضيًا، ونم أنت على السرير"

وقف هو أيضًا، واقترب منها.. أوقف حركتها، وهو يجذب يدها له، وما إن تقابلت نظراتهما، حتى قال بحب:

- "لا داع للارتباك.. فالأمر عادي أن أنام في فراش على الأرض"

نظرت إليه قائلة:

- "لكن.."

قاطعها فورًا:

- "سننام كلانا على فراش على الأرض.. جهزيه الآن إلا إن كنت ترغبين أن نتشارك ذلك السرير الصغير"

أنهى آخر كلامه، وهو يغمز بشقاوة جعلتها تحمر خجلاً، ليكمل راحمًا إياها بقوله:

- "سأغير ملابسي، وأعود فورًا"

✰✰✰

وضعت الصغيرة في مهدها.. دثرتها جيدًا، ثم التفتت إلى الجالس شبه ممدد يسند ظهره على خلفية السرير، ينظر إلى الأمام بشرود تام.

نادته بخفوت مرة ومرتين وأكثر، لكن عالم الشرود كان كمارد ضخم بسط هيمنته حوله كليًا.

مدت يدها، ولمست كتفه، بل إنها هزته.. هنا فقط انتبه لها، والتفت وعلامة التعجب ترتسم بإتقان على ملامحه الشاحبة.. قالت تبرر:

- "ناديتك مرارًا، لكنك لم تنتبه لي"

رسم ابتسامة لا تقل شحوبًا عن ملامحه:

- "لقد شردت قليلاً"

كانت ترغب أن تقول أنه ليس قليلاً، بل إن الشرود عالم جذبك بالكلية، لكنها صمتت، وهي تعتدل فوق السرير جالسة.. سمعته يتساءل، وهو ينظر ناحية المهد:

- "هل نامت (براءة)؟"

ابتسمت بحنان، مجيبة:

- "أجل.. لقد نامت للتو، ووضعتها في مهدها، ودثرتها جيدًا"

رأته يهز رأسه بصمت، ويعود للصمت الذي باتت تكرهه هذه الليلة.. كيف لا وهو زائر ثقيل الظل هيمن بخيلاء على أرجاء غرفة نومها!؟ عازلاً حبيب قلبها، وشريك حياتها في قوقعته البلورية:

- "ماذا بك (خالد)!؟ لمَ تبدو مهمومًا!؟ كنت أعتقد أن سعادتك ستكون بحجم الكون عندما تعود (شرف) إلى منزلك والقرية!؟"

التفت إليها، وليته لم يفعل؛ فتلك الدموع التي شعت ببريق كسر قلبها جعلها تتمنى أنها لم تلمحها.. سمعت صوته يخرج تشيعه جنائز كاثوليكية كئيبة باردة:

- "عادت جسدًا دون روح.. عادت دون أن توجه لي أي كلمة.. حتى وإن كانت كلمة عتاب"

ابتسامة ساخرة، تبعها صوت أقرب لضحكة شوهتها سخرية مريرة أكمل بها كلماته التي كانت خناجر مسمومة، رشقت روحه المكلومة المثقلة بالندم:

- "نسيت أنني أنا من قتل روحها... أنا من صنع (شرف) أخرى لا تمت بصلة لتلك الصغيرة المرحة الضحوك... أنا من غَيَّرَ خارطة ملامحها من البراءة للعبوس"

سكت، ليس لأن كلماته نفذت، بل لأن تلك الدمعة التي تعلقت بأهدابه دهرًا ثقلت بجراحه، فما عاد للهدب أن يحملها، ونزلت بكبرياء مخدوش على وجنة لم تعتد البكاء، فكتمت غصتها أحرف حُبست في حنجرته ووخزات الألم تكاد تزهق أنفاسه.

ارتعشت يدها، وهي تمدها نحو تلك الدمعة التي كسرت حبيبها... لا تعلم كيف تواسيه، وكيف تخفف خيوط الذنب التي لف بها نفسه في شرنقة أبت أن تنجب فراشة الأمل رغم كل تلك السنين.

- "لا تفعل هذا بنفسك (خالد).. طالما عادت إلى هنا فأكيد أنها ستعود إليك كما كانت.. إنها فقط تحتاج لبعض الوقت لتتأقلم على الذكريات التي هاجمتها هنا"

ابتسمت، وكفها تحط على خده تبعث إليه بعض الأمل:

- "كن أنت المبادر حبيبي، وتحدث إليها.. أعرب لها عن ندمك، وعن رجائك بأن تسامحك"

بادلها الابتسامة بتذبذب، وهو يهز رأسه مؤيدًا، بينما اكتفى بهمسه:

- "سأفعل.. يجب أن أفعل"

ثم اعتدل في فراشه، وأكمل بصوت كأنه لم يكن أبدًا يصارع الألم:

- "تصبحين على خير"

☆☆☆

ارتسمت ابتسامته، وهو ينسحب خارجًا.. يا إلهي! مازلت تخجل تلك الصغيرة، ومازال لخجلها ذلك وقعًا مدمرًا على قلبه.. تكاد تتقافز دقاته كلما اهتاجت وجنتاها بلون الخجل المحبب، ورغم مرور سنوات على زواجهما.. صحيح أنه لم يكتمل إلا بعد مرور عام على اقترانهما، إلا أنها رغم ذلك لم تكن كفيلة لأن تخلصها

من خجلها.. وهل يريد؟؟... طبعًا لا.. فهو يزداد تعلقًا وافتتانًا بها وبخجلها، وبكل ما هي عليه.

تنهد وهو يتذكر أول سنين زواجهما، وكم عانت فيهم، بل كم عانت في كل حياتها منذ تلك الحادثة.. تساءل في صمت.. (هل حقًا ما فعله صحيح بأن شجعها على القدوم هنا؟ هل هي ساعة الصفر لأن تبدأ يومًا جديدًا دون ذكريات.. دون تأنيب الضمير؟).

إنه متأكد من قوة صغيرته، فقد نفضت عنها الوهن منذ سنوات.

☆☆☆

استفاق على صوت الأذان، والظلام مازال يهيمن على المكان.. شعر فجأة بالنور الخافت يهاجم الظلام، وينتشر لتظهر له النائمة بجواره، ويدها الممدودة إلى الأبجورة الصغيرة التي جعلتها أمامها في الفراش الأرضي.

سمع صوتها الذي خالطته بحة النعاس:

- "(عبده)، هل استيقظت؟"

اقترب منها، ولثم خدها بقبلة سريعة، وهو يجيبها بحبور:

- "نعم.. صباح الخير (شروفتي)"

ردت، وهي تزيح الفراش الدافئ المغري للبقاء تحته:

- "صباح الخير... سأذهب لأحضر لك الماء الدافئ للوضوء"

لبست روبًا ثقيلاً فوق منامتها القطنية، واتجهت إلى باب الغرفة تشيعها نظراته المحبة الصامتة.

☆☆☆

بعد مدة عاد، وبعض قطرات الماء مازالت تبلل لحيته المنمقة الكثيفة، بينما يحمل بين يديه منشفة يجفف بها ساعده.

عدل كمي كنزته الصوفية، وهم بارتداء سترته الجلدية السوداء، عندما استوقفه صوتها:

- "انتظر.. هل تريد الخروج إلى الصلاة هكذا؟"

اقتربت منه بعد أن أخذت شيئًا من حقيبته التي جهزتها هي بنفسها له قبل سفرهما.

عدلت الشال الصوفي على رقبته وكتفه، وساعدته في ارتداء سترته الجلدية، ثم ارتفعت على أصابعها، ووضعت قبعة صوفية سميكة على رأسه، وهي تبرر:

- "البرد في قريتنا لا يرحم أبدًا في الشتاء"

نظر إليها، وهو يعدل القبعة، وبصوت غالبته بحة تأثره من قربها:

- "لا يرحم كما لا ترحم رائحتك بما تفعله بي"

اقترب، وهو يستنشق عبيرها، لتنهره بخجل:

- "(عبده)! ستفوتك الصلاة!"

ضحك من خجلها المحبب، والتفت مغادرًا، لكنه التفت قائلاً بمكر شعت له عيناه:

- "فاصل للصلاة ونواصل"

وخرج دون أن يلمح ابتسامتها العذبة، إنها تعلم أنه يحاول أن يخفف عنها، وهل كان دومًا إلا سندًا قويًا لها!؟ رغم ما فعلته به

في أعوام زواجهما الأولى، إلا أنه أبى إلا الصبر الذي نقش له في قلبها مكانة كبيرة.. تكبر كل حين.. كم تحبه! وكم أصبحت تلميذة متفوقة في عالم الحياة الذي تتلمذت فيه على يديه! إنه معلمها في أشياء كثيرة.. أولها كيف تكون قوية، فإن كانت الآن محاضرة معروفة، تتهافت إلى محاضراتها العديد من النسوة، فهذا لأنه هو من صنع ذلك بعد عون الله تعالى.

تنهدت، وهي تستمع لصوت الإقامة في سكون الفجر في القرية الصغيرة.. عندها اتجهت إلى إسدال الصلاة حتى تؤدي صلاتها، وتعد بعدها الإفطار مع والدتها التي رأتها قبل قليل في المطبخ، كما تعودت دومًا؛ فهذه عادتها أن تحضر الإفطار قبل الفجر، وبعد أن تصلي، ويعود الرجال من المسجد يبدأ يومهم بإفطار غني بكل ما جادت به طبيعة قريتهم الغنية.

خبز صنعته بيديها في تنور مخصص توقد ناره بأخشاب أشجار السرو التي تملأ الغابات حولهم، ثم يشبع بعدها بزيت الزيتون وإضافة إلى الزبد التي انتزعتها من لبن البارحة.. الذي خضته بنفسها، وحليب الماعز الدافئ الذي حلبته صباحًا.. الغني بكل الفيتامينات، لتمد أجسامهم بالطاقة والدفء ليوم بطوله.

☆☆☆

تعلقت نظراتها بظهر زوجها المغادر للغرفة مع شقيقها الذي سبقه بعد أن طلب منه أن يرافقه للتعرف على رجال القرية.

وما إن غادرا حتى التفتت ليد والدتها التي حطت على فخذها بحنان قائلة بنبرة ذابت فيها شوقًا، رغم أنها تنهل منها، لكنها حُرمت منها سنين عديدة:

- "ستأتي فتيات القرية ونساؤها للسلام والتعرف عليك"

شيء من القشعريرة غزا جلدها وعينيها.. لا ترى إلا من ثقب ذاكرتها المثخنة لنساء القرية، ونظراتهن التي تفاوتت بين الشماتة والشفقة والاستفهام، بينما هي تصرخ وفستانها الذي كان يزدان ببهجة الألوان قد غطاه لون واحد أحمر قانٍ كان في يوم ما دماء الحياة لإحداهن.

خرجت من ذكرياتها المتجسدة بصعوبة، لتعود تستمع لزوجة شقيقها:

- "إنهن يرغب في الاستماع إلى إحدى محاضراتك.. تعلمين أن النساء والفتيات هنا في القرية لا يسعف الحظ أغلبهن للتنقل للمدن.. حيث تلقين محاضراتك، ولأنك ابنة قريتهم فهن لن يفوتن الفرصة وأنت بينهن" أكملت كلماتها، وهي تبتسم بود.. لكن الأخرى بقيت تنظر إليها بجمود، وكأنها في حصة جبر معقدة بين الأرقام والمعادلات.. أخيرًا استوعبت ما قيل لها، ودون أن يتزحزح الجمود عن ملامحها.

- "حسنًا.. فليكن ذلك"

☆☆☆

كانت القرية رغم صغرها إلا أن فيها من التقارب ما يجعل زائرها يألفها بسرعة.. كان يجوب الطرقات الترابية الضيقة بين

منازل القرية الطينية التي توحدت مناظرها بذلك الدخان الخارج من فوهة مدافئها التي كانت الأخشاب هي وقودها.. كلما مر بأحدهم وسلم عليه يلاحظ كم الترحيب والود الذي استقبل به، وكل واحد منهم يصر عليه أن يدخل المنزل لتناول الغداء، فيعتذر هو بلباقة، فلا يكون من الآخر إلا أن يؤكد أنها إذن دعوة للعشاء، ولولا تدخل (خالد) لاحتار كيف يرد دعوات كل رجال القرية... كان مستمتعًا و(خالد) يصف له الأماكن، وحدود الأراضي التي تعود لعائلات القرية... وكيف تبرع أحدهم لإنشاء المسجد، والآخر لبناء المدرسة، وهم يخططون لإنشاء مستوصف صغير، لكن ما جعله يستمتع أكثر تخيله أن حبيبته قد ركضت هنا في طرق القرية، وضحكت هناك.. شهدت تلك الأزقة شقاوتها، وتلك الأشجار الباسقة كانت مركز تحدياتها، وكأنه حقًا يراها بشعرها الكستنائي المجدول تركض، وتتبعها جديلتها الطويلة، ولم يكن ينقص تخيلاته إلا رؤية شبيهتها الصغيرة ابنة شقيقها، بل إنه يكاد من فرط التخيل أن يسمع ضحكاتها... كم يحبها! حتى بات يعشق كل ما له علاقة بها، ويغبط أي شيء احتواها قبل صدره.

مازال يذكر كيف دك حصن تمنعها ليحتويها بعدها بكل الحب.

☆☆☆

☆☆

☆

كانت عائدة للتو من حفلة صديقة لها في ذلك البلد العربي. تغلب عليه فضوله ولم يجد نفسه إلا وهو يدخل غرفتها قبل أن تهم

بفعلتها النكراء في قاموسه.. كانت ستزيل تبرجها وأناقتها التي خصت بها نساء الحفل دونه. كانت فعلتها المجرمة في حق زواجهما الأبيض تحثها أن تنزع عنها فستانها الأزرق الذي لم يلمح إلا لونه عندما أخذها للحفل يظهر القليل منه تحت عباءتها. تسمرت حينها مندهشة...لا يعلم هل لدخوله غرفتها التي اعتزلت فيها دون أن يستأذن... أم لرؤيته وهو ينظر إلى جمالها الأسطوري الذي رفع راية استسلامه له.

اقترب من وقفتها واقترب حتى سمع صوت تنفسها. .كان يعلم أنها ما عادت تنفر منه... أو أن إحساسه بعث إليه الأمل أنها بدأت تتقبله... لهذا علم أنها ساعة الصفر لقربهما الحقيقي.

بعض كلمات كانت كفيلة أن تؤكد أنها تتقبله ليتجرأ أكثر وهو يقربها منه ويُشعرها بدفء قربه ويخترق دفاعاتها. لا يعلم كم مضى بعدها من وقت لكنه كان يبتعد قسرًا يحاول تجديد الهواء عندما لمح دموعاً تجري على خديها وصوتها الخائف يخرج متفرقًا

- "أرجوك"

- "لمَ؟"

سألها وهو لا ينوي التراجع، لتجيبه وهي تخفض نظراتها

-" ماذا لو....لو كنت.. اقصد.."

قاطعها بقوله بتفهم

-" غير عذراء"

رفعت رأسها بمفاجأة من الكلمة وكأنها للتو تدرك حجمها، لكنها قالت بثبات

ـ" هـي كانـت طـاهرة نقيـة وماتـت لأنـهـا فقـط فقـدت عـذريتها بحادث.. فماذا لو كنت مثلها؟ هل سأقتل؟هل سأتهم في شرفي؟ انتم هكذا معشر الرجال".

ابتسم حتى ظهر بياض أسنانه بوضوح وقربها منـه ويده ترسم معالم وجهها ببطء

ـ"لا يهمنـي مـا تتحدثين عنـه (شرف)، وأنـا لسـت كغيـري مـن الرجال لأن الشرف عندي يتعدى غشاء.. لأننـي أراه فـي ارتباكك مـن قربـي. رأيـت عذريتك فـي ارتعاشك حتـى مـن تلامس أيدينا العفوي...رأيتها في رجفـة شفتيك... عرفت العذريـة فـي نظراتك نحوي وفـي ردات فعلك وأنـت تسمعين أي غزل منـي. لا احتـاج لأكثر من هذا حتى تستكين رجولتي وتتضخم بفخر أنا زوجتي لـم تكن لرجل قبلي".

☆

☆☆

☆☆☆

سمع (خالد) يقول، وهو يشير إلى طريق ترابي بين أشجار الزيتون التي بدأت تزهر من جديد:

- "هذا طريق مختصر إلى المنزل.. اتبعني بحذر، فالأرض الطينية زلقة من آثار أمطار البارحة"

☆☆☆

أكملت للتو ترتيب الصالة الكبيرة نسبيًا.. بالنسبة للبيت.. نظرت إلى والدتها التي تضع المدفأة الكهربائية، حتى تدفئ الغرفة التي ستستقبل فيها النسوة، ثم خرجت لترى ما يمكنها أن تساعد به

(مريم) زوجة أخيها.. دخلت المطبخ، ووجدتها ترفع القدر من على النار، سألتها بلباقة:

- "هل تحتاجين إلى مساعدة؟ لقد أكملت عملي"

ابتسمت كما دومًا تراها منذ جاءت، فهذه أول مرة تلتقي بها، وهي ليست من هذه القرية لهذا مازلت لم تتعود عليها:

- "فقط إذا أمكن أن تتفقدي الصغيرة.. إنها في غرفتي"

هزت رأسها، واتجهت إلى مكان الغرفة.. ترددت قبل أن تدفع الباب الموارب، ودخلت وضربات قلبها تتسارع... هنا كانت جريمته... هنا وأد أحلامًا وقتل آمالاً.. هنا أجهض سعادة لم ترَ النور... هنا رأتها تقاوم غرغرة الموت، وهنا تبدل البياض إلى سواد، والعرس إلى مأتم.. هنا أقبرت في تابوت عتيق أحلام مراهِقة لم تفقه إلا حينها أن الأحلام تموت.

جالت عيناها في المكان.. ورغم أنه لم يحمل أيًا من أثاث الماضي.. لكن ذلك الماضي أبى إلا أن يثخن رئتيها بعبقه، ويلتف حولها كشرنقة تهوي بها في واده السحيق، وتأنيب الضمير له وخز لا يضاهي ألمه ألم.

☆☆☆

☆☆

☆

- "يجب أن تخبريه"

قالتها وهي تمسح دموعها التي رسمت أخاديد محمرة على وجنتيها.. تنهدت، وأكملت حينما لم تجد أي جواب من تلك التي لا تفسر ملامحها.

- "تكلمي (غالية).. قولي شيئًا.. صمتك هذا يذبحني...."

- "ماذا سأقول..."

خرج صوتها تشيعه رياح سيبيرية ثلجية، وبحة لا تعلم من أين أتت لتشوه معالم حروف باتت كالمسخ.

هتفت الأخرى باعتراض:

- "أي شيء.. اصرخي في وجهي.. قولي أنني كنت السبب.. أن تهوري جعلك تفقدين.. تفقدين.." وانخرطت في بكاء مرير..

وقفت وهي تحاول أن ترسم ابتسامة تقسم أنها حاولت جاهدة كي تجيدها، لكنها أبت إلا أن تخرج مرتعشة كئيبة، كما كل ما حصل.

- "لا تحملي نفسك السبب.. لأن ما حصل كان قضاء من الله.. كما.. كما أننا غير متأكدتين مما حصل بعد"

تعلم أن كلماتها لم تقنع تلك الصغيرة الباكية.. كيف تقنعها، وهي التي تكلمت بها غير مقتنعة بها!؟

- "ماذا عن تلك الآلام؟"

قالتها وهي ترفع وجهها الذي كانت تخبئه بين كفيها، تكتم قليلاً من نحيبها الذي أبى أن ينقطع.

- "وماذا عن تلك الدماء؟"

أرادت أن تصرخ بها.. أن تخبرها أن تصمت.. أن تتوقف عن سرد الحقيقة التي تعرفها هي جيدًا.. لكن يقينها أنها تعاني أكثر منها جعلها تبتلع صرختها، وتجتر الصمت.

عادت تقول بعد أن مسحت خديها بحركة طفولية، تشبه كل شيء فيها:

- "سأخبر (خالد)"

- "لا!!"

صرخت بها، وعيناها تزداد اتساعًا.. تمالكت نفسها لتكمل:

- "لا تخبريه.. إذا كان هناك أحد يجب أن يخبره فهو أنا..."

- "لكن... متى؟ وكيف ستخبرينه؟"

تنهدت حتى ارتفع صدرها من كم الهواء الذي امتلأ به:

- "ألم تخبريني أن (خالد) له عقلية منفتحة، وأن دراسته في المدينة جعلته يرفض تقاليد القرية؟"

هزت رأسها بنعم، مردفة:

- "حتى أنه من شجعني على إكمال دراستي في العاصمة، وسمح لي بالبقاء عند شقيقتي (زهرة)، وزوجها (سالم) ابن عمي"

ابتسمت لصديقتها، رغم أن الفرق بينهما سنتين أو ما يزيد قليلاً، إلا أنها تملك من البراءة ما يجعلها تبدو أصغر، أو أنها هي من تملك من الأنوثة ما جرها لخانتها مبدلاً طفولتها مبكرًا.

- "إذن سيتفهم الأمر.. إنه حادث"

اختنق صوتها بغصة دموع حبيسة، جعلته يخرج مختلقًا، وهي تكمل:

- "أليس كذلك؟"

هزت رأسها بتأييد، وهي تتجه نحوها، وتضمها إليها تبكي من جديد، بنحيب غاب خلفه دموع تلك التي لم تقوى على حبسها أكثر.

☆

☆☆

☆☆☆

صوت بكاء الصغيرة من جذبها من غياهب الألم، وسرداب الذكرى، كأنها للتو تدرك سبب دخولها للغرفة.. اتجهت نحو المهد، ومدت يديها إليها.. حملتها، وما إن فعلت حتى توقفت عن البكاء، يا لها من ماكرة هذه الصغيرة! التي بالكاد تتخطى الخمسة أشهر من عمرها! ابتسمت وحنان يفيض في عينيها.. ضمتها إلى صدرها، وهي تهزها بلطف، وتشتم رائحة شامبو الأطفال فيها.. التفتت إلى صوت (مريم) التي قالت:

- "هل أتعبتك؟"

نفت برأسها دون أن تتكلم، لتردف الأخرى:

- "لقد جلبت لها زجاجة الحليب.. ضعيها في مهدها سأعدلها حتى تشربها"

انصاعت لما قالته لها، وراقبتها وهي تلقمها حلمة الزجاجة، وابتسامة ترتسم على ثغرها عندما رأتها تلتهمها بنهم.. سمعت زوجة شقيقها تقول بابتسامتها الدائمة:

- "العاقبة لك.. أم أنك لا ترغبين بالأطفال الآن؟"

الأطفال!؟ كيف لا ترغب بهم وهم زينة الحياة الدنيا!؟ ابتسمت، وهي تتخيل أنها أم لأطفال من (عبد العزيز) حبيبها الذي لقنها معنى الصبر، الذي تحملها في أشد فترة في حياتها، والذي صبر عليها دون أن يشتكي.

- "الله كريم"

قالتها، وولت مغادرة، لتعود الابتسامة على شفتيها ويعود لها حلمها أن تحمل طفلاً لها من (عبد العزيز).. كم سيبدو رائعًا لو حمل ملامح والده، وحنان قلبه ورقته، وجمال صوته.. إنها تريده نسخة منه في كل شيء، حتى في شعره ذي الالتواءات الخفيفة، والخشونة التي تزيده رجولة.

هل ستفرحه بطفل من صلبه بعد كل ما عاناه معها؟

عندما أخبرتها شقيقتها (زهرة) أن (سالم) زوجها وابن عمهما سيدخل الغرفة ليحدثها، وطلبت منها أن ترتدي حجاب رأسها، استغربت الأمر.. صحيح أن (سالم) كان أخًا لها منذ عرفته، لكنه لم يطلب أبدًا أن يحدثها على انفراد وفي غرفتها.. لم تتقاذفها الحيرة كثيرًا لأنها رأت قده الطويل، والذي كان ميزة في جميع رجال عائلتها، بل حتى النساء، وبعد أن سلم بقوله:

- "السلام عليكم"

جلس على الكرسي الذي كان بجانب الباب، والذي لم تلاحظ أن شقيقتها وضعته بعد أن همهمت برد سلامه، جلست هي على حافة السرير في الغرفة التي خصصها لها في منزله في العاصمة منذ سنتين، أو منذ أن خرجت من المشفى بعد تلك الحادثة.. تنغص وجهها ما إن تذكرت الحادثة، وامتلأت عيناها بالدموع، لكن صوت (سالم) أعادها للواقع، وهو يسألها:

- "كيف حالك (شرف)؟"

- "بخير.."

أجابت باختصار، وهي تفرك كفيها ببعض بارتباك صار مصاحبًا لها.. أكمل هو مدركًا أن ما حصل عليه من إجابة كان كافيًا وزيادة، فابنة عمه الصغرى بعد ما حدث أصبحت ترتعب من كل الرجال، وتتوجس منهم خيفة، وهو فقط من تتحدث معه، وأحيانًا ذلك الطبيب الذي هو هنا من أجله.

- "(شرف)!... (شرف)!"

كررها، حتى رفعت وجهها له.. هو في حاجة أن يراقب انفعالاتها، ازدرد ريقه، ثم أكمل:

- "الدكتور (عبد العزيز)....."

سكت عله يرى أي تأثير للاسم على ملامحها، لكنه لم يرى إلا ملامح باردة، لا تحمل إلا تعابير ونظرات صقيعية.

- "خطبك، ويريد الزواج منك"

صفارة إنذار حربية هي كل ما سمعته بعد أن أخبرها بأمر الزواج.. ارتعدت أوصالها، والصور حية أمامها تدور حولها تؤدي رقصة الدراويش، وضعت كلتا يديها على صدغيها تضغط عليهما بقوة، وصداع مفاجئ يفتك بجمجمتها الصغيرة، بينما أخذت تصرخ بهذيان هستيري:

- "لا!... خطبة!...زواج!... دماء!...... أنا من قتلتها!...لا هو.. هو السبب.. لقد ماتت تدنس بياض ثوبها!"

هاله منظرها، وهي تنهار أمامه بهستيرية ظن أنه لن يراها مجددًا.. أخذ يتلفت حوله بقلة حيلة، وهو يصرخ:

- "(زهرة)! (زهرة)! تعالي بسرعة!"

وما إن أكمل حتى كانت تتجاوزه، تضم (شرف) إلى صدرها، تحاول أن تهدئ من روعها.

إنها أول مرة تتحمل هذه المهمة، فقد كان صدر والدتها هو من يحتوي هستيريتها، لكن والدتها ذهبت إلى القرية بعد أن ظنت -كما ظنوا- أنها تماثلت للشفاء، فارتأت أن تعود للاطمئنان على شقيقها الذي لم يكن بأفضل حال من هذه التي تهتز ارتعاشًا بين يديها.

بعد مدة كانت قد هدأت واستكانت، إلا من بعض الشهقات القليلة.

ومنذ ذلك اليوم ظنت أن كل شيء قد انتهى، عادت لحياتها الهادئة بعد أن كثفت من زيارتها لطبيبتها، بعد أن كادت الجلسات أن تنتهي ظنًا منها أن ذكر (عبد العزيز) قد انتهى.. عادت لتمارس دراستها بعد تأخر سنتين كانت فيهما متعبة

نفسيًا، لكن بعد ثلاث سنوات عاد (سالم) يحدثها بنفس الموضوع، لم تثر كما في الأول لكن هذا لم يمنع رفضها، وخوفها، وارتعاشتها التي جعلته يقول بثبات:

- "اسمعيني (شرف).. أنت لست فقط أخت زوجتي، ولا ابنة عمي.. أنت والله يشهد كأخت لي أو كابنة لي، فقد كنت في سنك عندما حملت بك خالتي لهذا أسألك هل تثقين بي؟"

لم ترد، فعاد يسأل:

- "هل تثقين بي (شرف)؟"

اكتفت بهز رأسها، وهذا كان كافيًا ليقول:

- "(عبد العزيز) رجل شهم.. نادرًا ما تجدين أمثاله بين الرجال، والرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير) [رواه الترمذي وغيره].. ومثله لا يرد.. صبر عليك ثلاث سنوات، وسيصبر أكثر حتى تتقبلي الفكرة، هو يريد أن يسافر، وأنت زوجته، لأنه قد حصل على عقد عمل في بلد عربي، وأيضًا حتى يكمل شهادة الدكتوراه هناك، وأنت أيضًا يمكنك أن تكملي دراستك الجامعية. سيكون عونًا لك، كما أنه لن يراعي حالتك النفسية ومرضك إلا هو، فقد كان طبيبك طيلة السنوات الماضية"

انفرجت عيناها باندهاش، وكادت تسأل كيف وهي تتعالج عند طبيبة نفسية، وهو لم تره إلا مرات معدودة يراقب بصمت، لكن

شفتيها المطبقتين أبتا أن تنفرجا، لكنه برر، وكأنه يعلم ما يجول في خاطرها:

- "كانت طبيبتك الواجهة فقط، فهو من كان يتابع حالتك، وإذا أردت أن تعلمي لمَ فعل ذلك، فهذا لأنك لم تتقبليه، لأنه رجل كما لم تتقبلي كل شيء من رجل".

وقف، وهو يرسم ابتسامة على ثغره، وأكمل:

- "استخيري، ثم أخبريني بجوابك"

وكما قال، صلت استخارة، ليس لأنها تريد أن تقبل، بل فقط حتى لا تتردد بالرفض، لكن قبل أن تخبره برفضها سمعت شقيقتيها في غفلة منهما يقولان:

- "إنه يتعذب.. ما كان يجدر بنا أن نوافق أمي ونزّوجه يا (زهرة)"

تنهدت (زهرة)، وهي ترد:

- "لم يكن أمام أمي حل آخر (مزون)، فنحن التهينا بأمر (شرف)، ونسينا (خالد) تمامًا.. أنا وأنت متزوجتان، ونسكن بعيدًا عن القرية، وأمي لا تبرح (شرف) إلا فيما ندر، وهو بقي هناك تتآكله وحوش الماضي لهذا زوّجته"

ردت (مزون) بصوت منكسر:

- "لكن ما ذنب زوجته؟"

أجابتها، وهي تقف:

- "(مريم) امرأة واعية وصبورة، ستتحمل حتى تنتقل بزوجها إلى بر الأمان.. المهم الآن أن تقبل (شرف) الزواج حتى نطمئن عليها مع زوج يراعيها، كما اطمأننا على (خالد)"

اتجهت فورًا إلى غرفتها قبل أن تراها (زهرة)، وقد قررت أن تقبل هذا الزواج، فحملها بات ثقيل على عائلتها.

ولم تع إلا بعد أن تحسنت نفسيتها، وعادت بقوة لتقهر الماضي أن شقيقتيها كانتا تريدان لها الخير، عكس ما كانت تظن أنهما تريدان التخلص منها.

رغم أنها لم تتقبله بتاتًا خلال عام من زواجهما، إلا أنه كان صبورًا متفهمًا، ومنذ أن تخطت هواجسها ومخاوفها لم تندم أبدًا أنها أصبحت زوجة بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانٍ، لزوج أقل ما يقال عنه أنه نادر، فهل ستكتمل سعادتهما بطفل يجمع بين جيناتهما ويمزجها!؟

☆☆☆

لم يسبق أن بدأت إحدى محاضراتها دون أن تشحن همتها بكلماته المشجعة، فهو قد تناول الغداء برفقة شقيقها وأصدقائه، الذين دعاهم ليتعرفوا على زوجها خصيصًا، ولم يسعفها الحظ لرؤيته قبل أن تبدأ بمحاضرتها إلى النسوة اللاتي امتلأ بهن صالون بيتهم المتواضع.

أغمضت عينيها تتخيل صورته، وتسمع صوته بكلماته المشجعة، فهو من كان له الفضل بعد الله ليس بشفائها فحسب، بل حتى بقرارها أن تختص في علم الاجتماع، وهو أيضا من

شجعها لتدخل عدة دورات في التنمية البشرية، بل وتخوض تجربة إلقاء المحاضرات.

شحنت همتها تحاول أن تنحي عن خيالها آخر صورة لضيفاتها يوم ذلك الحادث، والتي علقت في زاوية عقلها التي خطت أنسجة العنكبوت شباكها فقط لتعلق بها الصور البشعة، سمت الله ودخلت وهي تسلم بتحية الإسلام.

☆☆☆

ابتسم بارتباك إلى الحاضرين، ووقف وهو يستأذن ليرى لمَ تأخر مضيفهم، فـ(خالد) استأذن منذ ما يقارب العشر دقائق ليحضر الشاي والقهوة لأصدقائه، لكنه تأخر.

اتجه إلى الفناء الخارجي للمنزل، وما إن تقدم حتى رآه يستند على الجدار، بالقرب من إحدى نوافذ المنزل التي كانت مفتوحة، لكنها عالية فلا يرى منها الناظر شيئًا.. اقترب منه ووضع يده على كتفه محدثًا:

- "(خالد)، أنت هنا والجماعة تنتظر القهوة!؟"

التفت إليه ببطء يحاول لملمة قطرات دموع كانت تغسل وجهه، لكن هيهات ولملمتها كلها.. استغرب وهو يراه بهكذا منظر، لكنه تفهم وهو يسمع صوت زوجته يرتفع صادرًا من تلك النافذة... هل بقي هنا يستمع؟ ألهذا الحد أثر به كلامها!؟ لم يدم تساؤله واستفساراته التي لم تبرح عقله، حتى سمع الآخر يقول بصوت كسير:

- "لم أقصد أن يحدث ما حدث... أعلم أنني مذنب، لكن ليس بالصورة التي تخيلتها (شرف)"

مسح وجهه بطريقة غريبة، لا تدل إلا على أن صاحبها لا يفقه كيف تجفف الدموع، وأكمل وهو ينظر إلى (عبد العزيز) نظرات مضطربة:

- "لقد خذلتها... لم أعطها فرصة للحديث... ما إن أخبرتني أنها... أنها.."

وتحشرج صوته حتى كادت أنفاسه تنقطع.. منظره هذا جعله يشد على كتفه وبرجاء:

- "يكفي (خالد).. لا تحمل نفسك ما لا تطيق"

صرخ كأنه يستنكر أي دفاع عنه:

- "بل كان أمرًا أستطيع تحمله لو فقط كنت ذاك الشاب المتفهم الذي أملته فيّ... الذي منت نفسها أنني هو... لو فقط ظللت شبيهًا للصورة التي رسمتها لي"

ضحك باستهزاء وأكمل:

- "كانت تعتقد أني شاب متفهم.. أحمل عقلية مختلفة عن أهل القرية، وعن أي رجل شرقي متحجر، فقط لأنني درست ووصلت لمراحل متقدمة"

عاد ليضحك ضحكة تجرعت مرارة علقمية، ليكمل بصوت مهتز:

- "لم تعلم أن تخلفنا زُرع فينا، وكبر لصيقاً بمعاني الرجولة الواهية، ولم يكن للثقافة والتعليم قدرة على محوه.."

طأطأ رأسه، وأكمل وصوته دليل على انهمار دموع كسرت هامة رجولته ندمًا:

- "لم تكمل كلامها حتى..."

نفى بحدة كأنه يكذب نفسه، وأكمل:

- "بل أكملته، فأنا من اختار أن يضع نقطة النهاية، ولم يهمني أنه حادث حتى عندما ظهر المارد المختبئ في ذاتي، وأخذت أنعتها بأبشع الصفات. لم أهتم لرجائها أن أسال (شرف)، بل لم أفهم حتى أنها ربما لا تتعدى فقط شكوك فتاتين خافتا، ولم تخبرا أحدًا... أظلمت الدنيا في وجهي وشعور ضخّمه الشيطان بالخيانة يزداد في روحي، ويلون كل شيء بالسواد عندما خرجت من الغرفة، وقابلني شقيقها الذي يحمل البندقية حتى يضرب أعيرتها في السماء دليل فخره. نظرت إليها بازدراء، وأنا أرد على سؤاله أنه لم يحدث شيء يستوجب طلقاته، لم أعلم وأنا أتركه أن تلك الطلقات كانت ستُطلق، أقسم أنني لم أتخيل أن صدرها سيكون مكان طلقاته"

كانت آخر كلماته توافق انهياره التام جاثيًا على ركبتيه، لم يتحمل منظره ولا قسوة الماضي الذي تجسد أمامه الآن رغم أنه لم يشهده، لكن يكفي أن يسمعه ليعيش أحداثه بتفاصيلها، كيف لا وهو الذي سمعه منها كلما انهارت أثناء مرضها في المصحة النفسية لأشهر عدة، بل لسنوات.

ساعده على الوقوف بعد أن تركه يُخرج بعضاً مما يحمله صدره من ندم:

- "أرجوك يا (خالد).. يجب أن تتغلب على الماضي، أن تتصالح مع نفسك، وتقبل ندمك قبل أن يتقبله غيرك"

نظر إليه بعد أن استوى واقفًا، وأكمل:

- "ساعدها هي أيضًا... ساعد (شرف) كي تتخطى الماضي"

نظر إليه بأمل، بينما مازال الوهن يسكن ملامحه.

- "هل.. هل ستسامحني!؟"

هز رأسه بنعم، وأكمل بجدية:

- "المهم أن تسامح نفسك".. (وأكمل وهو يلتفت).. "أحضر القهوة.. لقد تأخرت على الضيوف.. سأذهب أنا لهم.. فلا تتأخر"

وغادر، والآخر يتتبع انسحابه، بينما عاد يسمع صوتها الذي يهتف بحماس:

"العذرية أكبر من غشاء البكارة!"

"...العذرية أخلاق قبل أن تكون مجرد غشاء وبعض قطرات دماء.. إنها طهر للسريرة قبل السيرة... لا أنكر أنها التاج الذي يتوج كل ذلك، لكن.... هل تلام الأميرة لو انكسر تاجها في حادث!؟... هل تلام لو سُرق رغمًا عنها!؟.... هل تلام لو أن تاجها كان مختلفًا بطبيعته عن غيره من التيجان!؟... لا.. لا تلام.. لكن الأكيد أنها ستلام لو تركت رمز مُلكها يؤخذ برضا منها.. لو فرطت فيه بإرادتها وتهورها أو استهتارها.. وهذا ما

أعنيه، فلا نريد أن نكون دومًا محل اتهام.. فقط حاسبونا لو ضاع تاج عذريتنا وطهرنا بإرادتنا.. أما ماعدا ذلك فهناك دلائل أخرى لذلك الملك الطاهر.. عذرية الأخلاق.. عذرية سيرة بأكملها.."

تنهد، وهو يتحرك مكتفيًا بما سمعه، بينما يهمس بألم:

- "وهي كانت عذراء طاهرة في كل سيرتها وأخلاقها، حتى وإن فقدت تاجها ذاك"

☆☆☆

كانت خائفة في البداية، خاصة بعد أن دخلت ورأت النظرات موجهة نحوها تتفحصها بتأمل.

لم تعرف أكثر الوجوه، فهي تركت القرية منذ عشر سنين، كبرت فيها الصغيرات، وتغيرت الشابات، وازدادت الكبيرات سنًا رسمته الأعوام باحتراف.

لكن ما إن بدأت بالكلام، حتى نسيت كل خوفها، وكان هدفها أن تقنعهم بما حملت من أفكار.

عندما قالت أن العذرية يجب أن لا تحتكر على غشاء البكارة، لم يغب عنها استنكار رُسِمَ في ملامح الكثيرات، خاصة الكبيرات سنًا، لكن ذلك لم يزدها إلا إصرارًا وتحديًا للإقناع.. أكملت بهدوء:

- "أليس من الجور أن تسمى الفتاة عذراء فقط لأنها حافظت على غشاء بكرتها لزوجها، بينما انتهكت عذرية نفسها بأن غازلها غيره، وأسمعها كلام الحب فتأثرت به، بل ربما لمسها

غيره!؟.... قضية الشرف يا سادة هي قضية حلال وحرام.. قضية الشرف هي قضية أخلاق في السر والعلن، ليس لأن العذرية المعترف بها لها دليل ملموس يحافظ عليها،ولأنه لا دليل على انتهاك عذرية المشاعر تتاجر بها الفتيات متى ما واتتهن الفرصة، إذا غاب الخوف من الله قبل أي خوف.. في حديث قال فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها اللمس، والرجل تزني وزناها الخطى، واللسان يزني وزناه المنطق، والفم يزني وزناه القبل، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه""

تنهدت وأكملت:

- "كيف نرهن قضية شرف بشيء قد يكون مختلفًا عن طبيعته عند بعض الفتيات!؟ أو ربما فقدنه في حادث ما!؟.... أو حتى اغتصب منهن بأبشع الطرق!!... لهذا صوتنا يجب أن يعلو.. نطالب إن حدث أي من تلك الأشياء التي هي أصلاً خارجة عن إرادتنا.. فلا نحاسب، بل يجب أن تراعى أخلاقنا وطهارتنا وعذرية كل شيء فينا غيره"

"وفي الوقت ذاته يجب أن ندرك أنه إذا اغتصب أو سلب بحادث فهذا أمر لا يجب أن نكتمه، بل نخبر به من هم أكبر منا سنًا وخبرة، ونحتوي الأمر بحكمة، ونثبت بأسلوب العلم أننا ضحايا، ونرفض أن نعيش على الهامش أو في الظلام كأي مجرم، بل

نحن ضحايا، ولن نرتدي ثوب الإجرام أبدًا.. نرفض أن نعيش كنجس يختبئ في الظلام"

☆☆☆

تأسف عن تأخره بجلب القهوة والشاي، وجلس وكله إصرار أنه قد حان وقت دك كل تلك الحدود الواهية التي بنيت بينه وبين شقيقته.

فقد آن الأوان أن يعترف بجرمه، يطلب الغفران.. آن الأوان أن يطالب بمسامحته.. أغمض عينيه بوجع استقر في خافقه، وشيء ما يجثم على صدره.

تنهد بصوت مكتوم، وهو يتشبث ببصيص أمل.

☆☆☆

كانت ممدة على السرير القديم بعد أن صلت المغرب.. استنزفتها تلك المحاضرة.. لكنها قررت أنها ستكون آخر محاضرة في قضية شرف.. فما تمنته قد حدث، وشعرت أنها قد أوصلت براءة (غالية) لكل من شك فيها، أو تحدث عنها؛ فـ(غالية) طاهرة كما أخبرتهم، ولأول مرة في محاضرتها تحكي السبب المباشر لإلقاءها لها، وهو ما حدث لهما، لكنها هنا كان يجب أن تفعل.. أن تهتف بأعلى صوتها أنها كانت السبب في ما حدث لها، بل أن (غالية) لم تفرط في تاجها، بل أخذ منها في حادثة كانت هي سببها.. حكت لهم الحادثة بقلب يُعتصر.. عندها فقط شعرت بالراحة، وتأكدت أن (غالية) راضية عن فعلتها.

همهمت بالدعاء لها بالرحمة، عندما سمعت طرقًا خفيفًا على باب الغرفة الموارب.. اعتدلت جالسة احترامًا للزائر، وهي تطلب منه الدخول:

ـ "ادخل"

وما إن رفعت رأسها بابتسامة رسمتها لتستقبل زائرها، حتى تجمدت ملامحها، وتقلصت ابتسامتها حتى اختفت، وهي ترى وجه أخيها ليفتح معها أبوابًا مغلقة على ماضٍ مريب، بلون عتمة ليل لا قمر فيه.

همسه الذي بالكاد وصلها كان مترددًا:

ـ "هل يمكنني محادثتك؟"

وقفت باعتدال، وهي تهز رأسها بتردد لا يختلف عما نطق به كلمته، مدركة أن وقت النقاش بينهما الذي طال عشر سنين ولدت الهجران والقطيعة قد حان.

لكن ما تستغربه أنها بعد آخر محاضرتها لنساء القرية شعرت أنها مستعدة لهذه المواجهة، وأنه حقًا آن الأوان للحديث.

تبعته بنظراتها حتى جلس في الكرسي القديم أسفل النافذة، وجلست هي على حافة السرير، تشبك أناملها في بعض تعتصرهم، كأنها تنتظر عصيرًا سائلاً منهم.. رفعت رأسها عندما شكت أنه تحدث.

"لم أتعمد..."

خرجت كلماته هزيلة ضعيفة، بالكاد تخطت حنجرته، فما كان له إلا أن يشحن همته، ليعاود ضبط حروف نبرته:

ـ "لم أتعمد أن يحدث ما حدث"

تلاقت نظراتهما لوهلة، قبل أن تهرب هي بها، لتعاودا معانقة يديها، لكنه أكمل بأمل أن يخفف عن روحه المكلومة:

ـ "أدرك أنني خذلتها وخذلتك، لكن أبدًا لم أتعمد أن تقتل بتلك الطريقة.. ربما تناسيت عادات قريتنا.. أو ظننت ألا أحد منهم مازال يجرؤ على أن يفعل تلك العادة القديمة"

سمع صوتها الذي خرج مرتعشًا دون أن تقوى على رفع رأسها:

ـ "قالت إنك ستتفهم الأمر، وأنك شاب مثقف يدرك أن مثل هذه الحوادث قد تحدث، وأن لا يد لها فيها.. رجوتها أن أخبرك أو أخبر أمي أو شقيقتي لتمهيد الأمر لك، لكنها رفضت"

تهدج صوتها حين أغلقت عينيها، والألم يعود لغرس خناجره المسمومة في قلبها:

ـ "قالت أنها ستعرف كيف تتعامل معك، وأنك ستتفهم"

أخفض رأسه، حتى كاد يدسه بين رجليه، وبصوت حمل كمًا من المرارة تناسى بها المكان والزمان:

ـ "كنت أحتاج لبعض الوقت فقط لأتفهم الأمر.. (غالية) لم تكن فقط زوجة اختارها أبي لأنها ابنة صديقه المتوفى.. لأنها اليتيمة التي لا سند لها ولأمها.. لأن شقيقها السكير لم يكن أهلاً لذلك.. (غالية) كانت حلم الصبا.. منذ أن عرفت المشاعر كانت (غالية)

تتصدرها.. كانت حلم مراهق.. وأمل النضوج.. كنت أدرس بجد فقط لأتخرج، وتكون (غالية) لي"

"أحببت فيها كل شيء، وحبست حبي في قلبي حتى لا أدنسه.. وعندما خطبتها كنت أسابق الزمن كي أمتلكها، وتكون معي كزوجة.. كانت كدرة كاملة في نظري.. عشقت بحة صوتها.. وحمرة خديها ما إن تراني.. ارتعاشتها وهي تلمحني.. واسمي الذي تنطقه في خلسة مني، حتى تسأل إن كنت في المنزل، قبل أن تدخله.. كانت كاملة في نظري، ولم أتخيل أي نقص فيها، وعندما أخبرتني بالحادث لم أستوعب أن ملكتي رمز الكمال الطاهر تأتي منقوصة.. لم أتحمل أن يُغتال الحلم يوم زفافي.. أعترف بغبائي عندها، لكنني لم أحتج إلا لبعض الوقت حتى أستوعب، وعندما صادفت شقيقها وأنا أخرج لم أنتبه لكلماتي التي قلتها، وأنا أراه يستعد لإطلاق أعيرة نارية احتفالاً بإتمام الزواج.. لكني عدت ركضًا عندما سمعت أنه دخل غرفتها، وأطلق الرصاصة عليها بدم بارد، ظنًا أنه يغسل عاره الذي تخيله"

"منظرها وهي بين أحضان والدتها، وبقعة الدم الحمراء تشوه بياض فستانها كانت سكاكين لم تبرح قلبي الذي مازالت جراحه حتى الآن تنزف قيحًا.. فقدي لـ(غالية) كان أكبر مما أتحمل.. فكيف وأنا أفقدها بتلك الطريقة البشعة!؟... بل وأفقدها وكل الأنظار تتوجه إلي بعتاب صامت، وأصابع الاتهام تحملني ذنب دمها المسفوك غدرًا.. تركني الكل ككلب مسعور أتجرع مرارة فقدها، ينهشني الندم والذنب، كنسور جارحة حول جثة متعفنة..

هجرني النوم ليلاً لأشهر عديدة، لا أقوى حتى أن أغمض عيني في الظلام، لأن بياضها المدنس يهجم ككابوس مخيف ينهش جنبات روحي، كفئران جائعة تقرض خبزاً يابساً"

"زيارات أمي التي تتخطفها من وقتها المستقطع معك كانت كبصيص أمل ينير حياتي.. يخبرني أنني مازلت على قيد الحياة.. لأشهر كنت أبقى طريح الفراش والحمى تأكل أطرافي، ولا أقوى معها حتى على الحراك.. يتملك روحي خوف مرير أن يتوفاني الموت وحيدًا منبوذًا، لكن لم أر إلا أن هذا جزائي وطهري من ذنب (غالية) الذي لم أتعمده"

أكمل بتردد هامس:

- "ربما لو أخبرتني في وقت غير ذلك الوقت لكان الأمر أهون"

كلماته جعلتها تشهق ببكاء عجزت أن تكتمه.. هل كان يتألم!؟ هل أحب (غالية) بذلك القدر!؟ أيعقل أنها لم تفكر إلا في نفسها!؟ هي تدرك أنه لم يكن يرمي بما فعل إلى أن تُقتل بتلك البشاعة.. هل حملته كل الجريمة بينما كان هو يتألم أضعاف ألمها!؟ يفتقد بوجع (غالية) أضعاف فقدها!؟

لا تعلم كيف وقفت، ولا كيف اقتربت منه، ولا كيف همست باسمه الذي لم تنطقه لعشر سنوات.. لكنها ما إن رأته يقف أمامها ينظر بخوف إلى دموعها المنهمرة، متناسيًا دموعه التي بللت لحيته الخفيفة، حتى ارتمت بين أحضانه تبكي بصوت كالنحيب، وضمها هو بحنان أخ للتو عرفت أحضانه دفء

هجران شقيقته الصغرى، وهو يشاركها النحيب بصوت رجل اكتسحه الألم، واكتحل به، وهو يردد من بين شهقاته:

- "ضيعت أمانة والدي.... كسرتها.... بل كنت سببًا في قتلها"

بينما لأول مرة كانت تقول -لا تعلم هل لتقنع نفسها أم لتواسيه-:

- "إنه قدرها... كلنا أخطأنا في حقها... حتى هي أخطأت في حق نفسها بأنها احتفظت بالأمر سرًا، ولم تخبر أحدًا.. ولا تحتاج منا إلا الدعاء"

سمعته يقول بهمس رجل سكن فؤاده طعنة خنجر:

- "لن أسامح نفسي ما بقي من حياتي"

تشبثت به أكثر، وهي تحاول أن تدفع هم الذنب عنه:

- "بل يجب أن تسامح، فمسامحة النفس أول خطوة لتصحيح أخطاء الذات"

ابتعدت عنه وهي تسمع صوت حبيبها الذي جاء مازحًا، عله يبعد سحابة الحزن والألم:

- "لقد جعلتما الجميع يبكي.. عليكما أولاً إصلاح الأمر"

التفتا إليه، ثم نظرا إلى ما خلفه.. إلى والدتهما التي تغطي وجهها بكفيها تبكي حزنًا للذكرى، وفرحًا لاجتماع ابنيها.. المهم أنها دموع غالية من عجوز أنهكها الماضي.

توجها إليها معًا علهما يخففا عنها، ويكفكفا دموعها الغالية.

بينما قررا معًا أن يبدأ كل منهما صفحة جديدة، وأن يقبرا في تابوت منسي ألم الماضي وجروحه.

☆☆☆

مر شهر منذ زيارتهما إلى القرية.. ومنذ ذلك اليوم الذي تصالحت فيه مع نفسها -قبل أن يكون صلحًا مع شقيقها- وهي تعيش بسعادة، فقد أدركت أن السعادة ليست أن تملك كل شيء أو أن يحدث كل ما تمنيته، بل إنها الرضا بقدر الله وعطاءه.

فتحت كف يدها الذي كان يقبض على ذلك الجهاز الصغير الأبيض، وعادت تنظر إليه وبريق البهجة يلمع في مقلتيها، ضمته في كفها من جديد وهي تضعه بالقرب من نبضها، كأنها تريد أن تحدثه حديث القلوب.

تنهدت براحة، ثم اتجهت خطواتها إلى طاولة الزينة.. تأملت نفسها في المرآة.. زينتها الخفيفة.. فستانها الأسود الطويل الأنيق، المرصع عند فتحة الصدر التي حملت رقم سبعة بكريستالات صغيرة فضية، زينت أيضًا الحزام الذي يحيط خصرها الرفيع، شعرها الكستنائي يتموج منسدلاً يغطى ظهرها إلى النصف.. كانت راضية عن نفسها تمامًا. نظرت إلى ساعتها الكريستالية التي تزين معصمها.. ابتسمت وهي تتذكر كيف أصر (خالد) أن يلبسها إياها بنفسه، وهو يقدمها كهدية زواج متأخرة.. إنه موعد عودة زوجها، وبدء مفاجأتها.

اتجهت إلى الفراش، ودست ما تحمله في كفها تحت وسادتها، عدلت المفرش جيدًا، واعتدلت من فورها، وهي تسمعه يناديها.

اقتربت من باب غرفة النوم حين فتح، عندها وقفت تنظر إليه ببهجة، بينما ترجمت نظراته إعجابه بطلتها، وحبها الذي لا يمل أن ينطق به بكل جوارحه.

مغناطيسها يجذبه، وكأن الأرض من تحته تطوى، حتى أصبح يقف أمامها تمامًا، لا يفصلهما إلا ذلك الهواء العالق بينهما.

ارتفعت يده لتحط على خصرها، بينما مازالت نظراته معلقة بعينيها.. غرامه الأبدي.

حتى في قمة ضعفها كانتا فتنته، فهو مازال يذكر أول لقاء بينهما.. كانت في قمة انهيارها عندما أخبرته بها زميلة له كانت تعالجها، وتهتم بمرضها النفسي وانهيارها المتكرر، حينما كان هو في زيارة للمشفى للعمل على رسالة الماجستير التي كان يناقش فيها الطب النفسي، والعلاج بالقرآن.. وكانت أول حالة يطبق عليها نظرياته، وما دونه من بحوث في رسالته.

وكم كانت النتائج مبهرة.. عززت أبحاثه ونجاحاته في مجاله وتخصصه.

ومنذ أن رآها بعد عامين قضتهما في المشفى، وبعد أن كانت تتردد عليه للمتابعة الدورية، بعد أن عادت للمنزل، علم أنها لم تكن كأي حالة مرضية، لهذا ترجم إعجابه بها فورًا، وطلب يدها من وليها حينها، وهو زوج شقيقتها، ورغم رفضها إلا أنه عاد مجددًا لخطبتها بعد ثلاث سنوات، كان فيها الطبيب المكلف بحالتها دون أن تدرك، وكان مستعدًا أن يمضى عمره يخطبها إن تكرر رفضها.

سحب نفسًا طويلاً، وهو يغمض عينيه يستنشق عطرها، بينما يميل ليهمس لها ويؤجج بأنفاسه نبضاتها:

- "ماذا تنوين أن تفعلي بي أكثر؟"

ازدردت ريقها بصعوبة، وهمسته تتلاعب بها، تجعلها تتساءل عن سر هذه النبرة التي يأسرها بها مكبلة راضية، وهو يجذبها في عالم لا أحد يسكنه إلا هي وهو وهمسته.

ضحكت ضحكة خجول لم تدرك أنها أطاحت بالكثير من تعقله:

- "لا شيء.. ألم يعجبك شكلي؟"

رفع أناملها ليديرها حول نفسها كراقصة الباليه، قبل أن يهمس بشغف

-"فاتنة.. كعادتك دوماً"

- "ما رأيك أن تكتشف المفاجأة التي أخبئها لك؟"

لمعت عيناه، وهو ينظر إلى تفاصيلها، ولم يخرج من حاله هيامه بعد.

- "مممم.. أحب المفاجآت، لكن ألا يمكن أن نؤجل ذلك؟"

دفعته من كتفه، فمثل التألم، لكنها لم تهتم، وهي تمده بورقة كانت محشورة في حزام فستانها الفضي.

- "لا، لا تأجيل"

حمل الورقة بحيرة، وهو يفتحها.. كانت تلتف حول نفسها كورقة بردي قديم حمل رسالة ملوك فرعونية.

- "ما هذا؟"

- "خريطة فيها أول لغز يقربك من بحثك"

أجابته بابتسامة جعلته ينظر لها بتعجب، مكررًا كلمتها:

- "خريطة!! هل سأبحث عن كنز!؟"

- "نعم"

نظر إليها بذات النظرات التي تعشق، بينما قال بهمس مدغدغ:

- "لكنني حصلت على الكنز ما إن حصلت عليك"

كان يجب أن تتمالك نفسها كيلا يفقدها مخططها، لهذا همست

- "إنه يستحق أن تبحث عنه.."

أكملت، وهي تبتعد:

- "اتبع فقط الخريطة، وستجده حتما، ولا أراك قبل أن تجده.. اعتبره تحديًا لذكائك يا دكتور"

رفع حاجبه بتحدي يجاري به مكر صغيرته الأنثى.

- "حسنًا، فليكن لكن اعلمي أنني أريد شكرًا مضاعفًا"

سمع ضحكتها، فابتسم وأخذ يقرأ أول مفاتيح حل لغزه الذي يقربه من الكنز، وفضول غريب يتملكه.. يا ترى ما هو هذا الكنز؟ ابتسم، وهو يهمس:

- "سأجاريك صغيرتي، وسنرى"

(هناك يستطيع القمر أن يداعب بنوره ملامحك المرتخية)

كان هذا اللغز الذي جعله يقرب حاجبيه بتفكير بعدها.. قال، وهو يرفع حاجبه:

- "إنها الشرفة"

اتجه إلى كنزه، وما إن دخل واتجه إلى كرسيه الهزاز الذي يجلس فيه ينتظر الشاي من يديها بعد العشاء حتى وجد ورقة أخرى بلون آخر تحمل رائحتها! هل تعمدت ذلك أم أن رائحتها علقت بها، كما علقت بالورقة الأولى التي كانت بين ثيابها!؟

فتحها ليجد لغزًا آخر:

(حيث جزء من تكويننا يحمل حياة خضراء تبعث الأمل فينا بابتهاج)

فكر وهو يحاول أن يفهم لغزها، ثم هتف بفرح:

- "إنه أصيص الزهور"

واتجه نحو حافة الشرفة حيث الأصيص، عندها وجد ورقة ثالثة بلون يختلف عن سابقيها، تحمل نفس عبق شذى حبيبته.

(تحوي من يحملون ذنوبنا عند مغادرتهم ليلقنوها البحر)

ابتسم؛ فهذا اللغز سهل، واتجه من فوره إلى الصالون، ليجد ورقة فوق الطاولة هناك تختلف بلونها، وتقاسم الأخريات العطر.

(حيث مركز هذا العطر وشذاه)

حملها وهو يتجه إلى غرفة النوم حيث طاولة الزينة التي تحوي قوارير عطرها.. وكما توقع وجد ورقة أخرى.

(انظر أمامك.. ستراني خلفك)

نظر بريبة، فانعكست صورة السرير الكبير خلفه على المرآة أمامه، حيث كانت ورقة كانت مختلفة، فهي أكبر، لكنها تحمل لغزًا آخر.

(أنا من شاركت صدرك في احتواء رأسها)

اتجه نحو الفراش حيث وسادتها ورفعها، ليجد شيئين، ورقة وجهاز أبيض صغير يعرفه.. إنه جهاز اختبار حمل.. نظر إلى الخطين المتوازيين، وأغمض عينيه، وهو يبتلع ريقه.

حــامل!! حبيبته تحمل جزءًا منه في أحشائها.. صغيرته ستغدو أمًا لطفله!

أي بركة إلهية هي التي تهبه السعادة أضعافًا!

"الحمد الله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"

تمتم بها، ثم فتح الورقة، ليجد فيها:

(حيث مصدر النور)

حينها انطفأ النور فجأة، ليعم المكان الظلام.. تحسس المكان، وهو يتحرك بحذر، حتى خرج من الغرفة التي لن يتوه عن معالمها حتى في الظلام، ليفاجأ بنور الشموع في غرفة الجلوس. اتجه نحوه يرشده الضوء الخافت هناك، ووقف وهو

يتأمل زينة المكان، وكأنه أُعد لاحتفال ما، وهي بفستانها الأحمر الذي يلامس بالكاد حافة ركبتيها.. وجهها الفاتن الذي زادته زينته الخفيفة فتنة، وشعرها الذي رفعته خلف رأسها تاركة بعض خصلات ملتفات حول بعضها تنزل لتلامس خديها، لون عينيها يشع بلون الشيكولاتة الذائبة.. زاد بريقها من أثر لهيب الشموع التي تزين المكان وتحيطه.

تقدم نحوها متناسيًا سؤاله ذاته.. (متى غيرت لباسها وحضرت كل هذا!؟).. في الوقت الذي تقدمت نحوه.

واختصرا المسافة بينهما، ليكون اللقاء عاصفًا بلهيب عواطف ملتهبة.. قطعها همسها، وهي مازلت تطوق رقبته:

- "أحبـــك"

☆☆☆

كانت تتجه إلى مكتب زوجها بعد أن انتهى موعدها مع الطبيبة التي تتابع حملها منذ أربعة أشهر.. ترسم ابتسامة رضًا، تختفي ولسانها يلهج بالحمد.. أخيرًا تخلصت من حالة الغثيان التي لازمتها الأربعة أشهر الماضية.. إنها تتحسن.. هكذا أخبرتها الطبيبة.. كما أخبرتها أن جنينها في حالة جيدة، متبعة قولها بالكثير من التنبيهات والتوصيات، وأيضًا بعض الفيتامينات والحديد التي حملتها ورقة الوصفة الطبية لأجلها، ولأجل نمو متكامل لصغيرها الذي بالكاد برز بطنها به.

وصلت إلى حيث مكان المكتب.. وجدت الممرضة التي وقفت ما إن رأتها، لأنه أخبرها من قبل بأن تجعلها تنتظره.

سلمت عليها، والأخرى ترد بود، وهي تمد يدها بالمصافحة، بينما تسألها:

- "هل (عبد العزيز) في الداخل وحده؟"

نفت برأسها، وهي تتقدمها لباب المكتب:

- "لا إنه في غرفة إحدى المرضى.. أخبرني بحضورك، وطلب مني أن أخبرك أن تنتظرينه في المكتب"

- "حسنًا"

قالتها وهي تدخل المكتب الذي لم تطل البقاء فيه، حتى فتح باب ليظهر منه قد زوجها.

وقفت تستقبله، بينما تقدم هو أيضًا ناحيتها بعد تحيته بالسلام.. قبّل خدها معتذرًا:

- "آسف.. تركتك تنتظرين"

جلسا كلاً في مكانه.

- "لا لم أنتظر كثيرًا.. كيف كانت جلستك العلاجية؟"

هز رأسه وهو يضع ملف مريضته في درج خلف مكتبه.

- "قبل جلستي أخبريني عن نتيجة موعدك مع الطبيبة"

- "رائع"

قالتها مبتسمة، وأردفت:

- "كل شيء بخير بفضل الله، وموعدي معها بعد شهر.. أخبرتني أنه حينها يمكنها أن تخبرني بجنس الجنين"

ابتسم بفرح لمعت له عينيه.

- "سأكون معك حينها بإذن الله.. لن أفوت اللحظة، رغم أنه لا يهمني إن كان ذكرًا أو أنثى، لكنني أحب أن نعيش تلك اللحظة معًا"

نظرت إليه بامتنان أنه يفهمها، حتى قبل أن تتكلم.. كانت ستطلب منه أن يرافقها حينها، لكنه كان الأسرع.

- "إن شاء الله سنعيشها معًا"

سكتت بينما كان هو يرتب مكتبه، ويضع بعض الملفات في أدراج مخصصة.. استعدادًا لعطلة العيد التي سيغيبها عن مكتبه.

- "ماذا عن جلستك أنت؟ ألن تخبرني عنها؟"

وقف وهو ينزع رداء العمل الأبيض، بينما يشرح لها:

- "إنها تلك الفتاة الصغيرة التي أخبرتك عنها قبلاً"

سألته لتتحقق:

- "تلك التي خُطفت وتعرضت للاغتصاب؟"

قالت آخر كلمة بألم صاحبه تنهيدة طويلة.. اتجه إليها وهو يحمل حقيبة العمل، بعد أن ارتدى سترته.

- "نعم إنها هي.. كان آخر يوم لها في المشفى.. ستغادر اليوم، حتى تتأهل لانخراطها مجددًا في المجتمع، فحالتها تحسنت كثيرًا عما كانت عليه قبل سنة عندما نُقلت للقسم النفسي"

وقفت من مكانها، واتجها نحو الباب للخروج من المكتب، ومازال حوارهما قائمًا.

- "وكيف كان تقبل أهلها لها؟"

أغلق الباب بالمفتاح الذي كان مع مجموعة مفاتيحه في سلسلة أنيقة أدخلها جيبه، ثم تحرك وهو يمسك بيد زوجته بعد أن حيا الممرضة بحركة من رأسه.

- "أبواها لم يصدقا أن يجداها حية.. صحيح أنهما بالكاد تجاوزا صدمتهما بحالتها، لكن في جلساتي معهما أحسست أنهما تقبلا الأمر، ويهمهما حالة ابنتهما.. لا تنسي أنها بالكاد تخطت الرابعة عشر، ومختطفوها كانوا شبابًا سكارى اختطفوها عند عودتها من المدرسة، ثم ألقوها بعد أيام في مقبرة وهي شبه ميتة لولا رحمة الله بها"

تنهدت وهي تقطع ممرات المشفى ببطء تتأبط ذراع زوجها:

- "سيكون أمامها الكثير لتتخطى ذلك، لكن ما أتعجب له.. كيف تقبلتك!؟"

ضحك، وهو يقف في مكان خالٍ من الرواق.

- "هل تشكين في قدرات زوجك المهنية؟"

ابتسمت، وبصدق:

- "طبعًا لا.. وأنا أصدق مثال على ذلك، لكن لأنك رجل توقعت ألا تتقبل العلاج منك"

مد يده يتلمس وجنتها، ونظراته لم تتزحزح عن عينيها.

- "كنت في البداية أفعل معها ما كنت أفعله معك، لكن لأنها ربما أصغر سنًا رأت فيّ الأب لهذا تقبلتني كما تقبلت والدها"

بحيرة ظهرت في نظراتها المحتلة عينيها:

- "مهلاً.. وماذا كنت تفعل معي؟ لا أذكر أنك عالجتني مباشرة!"

جذبها ليكملا مسيرهما، وبصوت مرح أكمل:

- "هل كنت تعتقدين أنني أخذت درجة امتياز في رسالة الماجستير دون أن يكون هناك من أطبق عليه!؟"

توقفت، ونظرت إليه.

- "(عبده)، هل تقصد أنك...."

قاطعها، وهو يعاود السير:

- "صحيح أن الجلسات كانت تقوم بها الطبيبة المتمرنة، وأنا كنت أتابع، لكن محل دراستي ورسالتي كنت أنا من أقوم به.. كنت أتابع حالتك، وأنا اقرأ عليك القرآن وآيات الرقية، وكانت تنفع معك أكثر من المسكن، وتجعلك في حالة استرخاء"

غابت في ذكريات بالكاد تذكرتها الآن.. صوت رخيم يجود القرآن كل ليلة.. تجعلها في حالة من السكينة.. لكنها كانت تعتقد أن كل ذلك تخيلات.

ضمت نفسها إليه، وهي تتأبط ذراعه أكثر، وهما يخرجان من باب المشفى دون أن تتكلم.

لكنهما توقفا عند الدرجات القليلة، وهما يشاهدان تجمهرًا كبيرًا في ساحة المشفى.. قالت باستغراب:

- "ماهذا التجمع!؟"

أسرع بها نزولاً خوفًا من الفوضى التي يراها، وإسراع الرجال إلى هناك، ورجال الأمن.

- "لا أعلم.. هيا إلى السيارة.. أخشى عليك من هذه الفوضى"

وما إن وصلا إلى السيارة، حتى ساعدها على الركوب، وبعد أن أغلق الباب سمع رجلين يتحدثان.

- "لا أظنها ستعيش.. لقد طعنها عدة طعنات في القلب مباشرة"

ليرد الآخر بتأثر:

- "إنها فتاة صغيرة، وهو أيضًا شاب صغير.. أظنه في العشرين"

رد الأول:

- "نعم إنه شقيقها.. سمعت أنها قضية شرف.. سترك يا رب"

اتجه سريعًا إلى حيث التجمهر الذي خف بفضل رجال الأمن الذي فرقه.

وسأل أحدهم:

- "ما الذي حدث!؟"

☆☆☆

كانت في السيارة التي تقطع طريقها إلى القرية حيث سيقضيان العيد مع عائلتها.

فرحة تغزو روحها.. لكن ما يعكر فرحتها وجه (عبد العزيز) المتجهم منذ عاد من التجمهر الذي كان في ساحة المشفى..

حاولت معه ليخبرها عن سببه، لكنه كان يقول باقتضاب أنه شجار بين شابين.

عادت تسأله:

- "(عبده)... ألن تخبرني ما الذي أزعجك؟ لم تكن بهذا المزاج قبلاً! منذ البارحة وأنت متحمس لزيارتنا للقرية، وتمضية العيد معهم والذبح هناك، وخاصة لتلك المفاجئة التي أخبرتني عنها، وأبيت أن تسهب في التفاصيل"

شد بقبضتيه المقود أكثر، حتى ابيضت مفاصله، بينما رد باختصار:

- "لا شيء حبيبتي.. فقط كما أخبرتك حالة أحد المتخاصمين حرجة، واليوم هو اليوم الثامن من ذي الحجة ساءني أنه لن يمضي العيد مع عائلته"

سكتت رغمًا عنها، فالأمر فعلاً يدعو للحزن، دون أن تنتبه لحديث ذاته.. وهو يزفر بصمت:

"ما الذي تريدين أن أخبرك به (شرف)؟ أن الفتاة التي كتبت اليوم أمرًا بخروجها لمواجهة الحياة قُتلت على يد شقيقها الذي يدعي أنه يطهر شرفه!؟ هل أخبرك أن قضية الشرف التي حملت لوائها ما زالت تحتاج إنعاشًا في مجتمع يتصدر فيه العرف حتى على الدين والعقلية الشرقية المتحجر، قد لا تعرف التفريق بين الضحية والجاني!"

☆☆☆

يوم عرفة كان يعبق بنكهة العبادة، لتتوحد القلوب بين الواقفين في جبل الرحمة، وبين كل المسلمين ينتظرون يوم النحر.

دخل إلى غرفتها حيث أخبرته والدتها أنها هناك، ليجدها ترتب ملابسه ليوم الغد.

اقترب يسألها

- "(شرف)، هل أكملت عملك؟"

التفتت إليه، وبهجة اليوم بحضورها إلى القرية ومشاركة حبيبها لها ترتسم على ملامحها.

- "نعم.. هل تريد مني شيئًا؟"

- " الضيفة التي أخبرتك عنها في الصالون مع والدتك.. لقد أخبرتها أن تنتظر لأخبرك، وقد أقسمنا أنا و(خالد) على ابن شقيقتها الذي أحضرها على البقاء معنا للإفطار، ثم سيتولى (خالد) إعادتهما إلى المنزل"

أحيا غموض ضيفته فضولها فسألته

- "ألن تخبرني من هي!؟"

هز رأسه بينما يطوق كتفيها يسير بها إلى خارج الغرفة إلى حيث تجلس الضيفة.

- "إنها والدة الشاب الذي أخبرتك عنه.. ذاك المسجون"

توقفت وهي تنظر إليه بتساؤل.

- "أتقصد ذلك الذي قتل أحدهم وأنت كنت تزوره دومًا، والذي بفضلك تاب وعاد إلى الله، بل أصبح داعية في السجن!؟"

نفى بحركة من رأسه، بينما يقرص خدها مؤنبًا.

- "ليس بفضلي، بل بفضل الله وحده، فهو من شرح قلبه للهدى والتوبة والرجوع، وأسأله وحده أن يتقبل توبته"

أكملت وهي تمسح أثر قرصته المؤلمة:

- "أتمنى أن تكون توبته متقبلة، فحتى وإن كان قتل عمدًا، لكن التوبة تَجُّب ما قبلها من ذنب، وأنت أخبرتني عن مقدار ندمه"

تنهد وهو يعاود السير معها.

- "ضيفتك هي والدته"

عادت تتوقف، وهي تضم كفيها، وتصفق بفرح.

- "حقًا؟ هل قبلت أخيرًا أن تسامحه وتزوره؟"

هز رأسه مردفًا بخفوت.

- "نعم سامحته، وزارته، وكم كان لقاؤهما مؤثرًا بين ندمه الذي أخبرها به، وبين ندمها أنها لم تسامحه قبلاً"

قالت وهي تضع يدها على مقبض باب للصالون:

- "طالما توبته صادقة، فيتوجب من الجميع مسامحته"

ابتسم بصمت، وهو يحثها على الدخول.

وما إن دخلت، حتى شهقت وهي ترى العجوز الجالسة مقابلة لها. وضعت كفها على شفتيها، ودموع تتجمع في مآقيها بينما همست:

- "الخالة (رئيفة)!!..."

وقفت العجوز بابتسامة، وهي تفتح يديها لها.

- "يا قلب خالتك.. يا رائحة الغالية (غالية) -رحمها الله- كم اشتقت إليك صغيرتي!"

اتجهت إليها ركضًا، وهي ترتمي في أحضانها تشم عبقها، علها تجد فيها رائحة صديقتها الغائبة مازالت عالقة بها، سامحة بتلك الدموع أن تنسكب.. (ستكون الأخيرة أعدك)... هكذا أقنعت نفسها، وهي تكتشف أن السجين لم يكن إلا قاتل (غالية) يوم زواجها.. شقيقها العابث.. لكن هل تملك إلا الصمت بعد أن تاب!؟ قد لا تستطيع تقبله كما فعلت والدته أو مسامحته كما تحاول هذه العجوز، لكن لا تستطيع أن تحقد عليه بعد ما عرفت كم كان ندمه كبيرًا على تهوره، وفعلته التي حرمتها من رفيقتها، وأضاعت سنينًا من عمرها، وغيرت الكثير في حياتها، بل وحياة هذه العجوز التي لم يبقَ لها بعد الله إلا شقيقتها الأرملة التي تعيش معها ومع أولادها، حيث أخبرتها أن الله عوضها بها، حتى تخفف فقدها، فهو فقد مضاعف، فالقتيلة فلذة كبدها، والقاتل أيضًا كذلك.

☆☆☆

مازال على جلسته مثني الركبتين على سجادته، يلامس مفاصل أنامله، ولسانه يلهج بالاستغفار الذي مازال رطبًا به منذ سلم من ركعتي الشكر على نعمة الله بأن جعله يقابل والدته، ويرجو عفوها، يحاوط المكان ظلمة وليدة. يعلم أن قرص الضوء الإلهي يوشك أن يغادر يومه، ويغوص في عالم آخر يملؤه نورًا

وضياء، لكن النور المنبعث من وجهه جعل المكان يشرق بهالة نورانية.

لن ينس هذا اليوم أبدًا.. لن يبالغ إن قال أنه أجمل يوم عاشه في سنين حياته التي قاربت أن تتجاوز القسم الأول من الثلاثينات.. يوم انتظره من عشر سنوات... وأمل غرس فيه، وهاهو الأمل قد لمع وهجه ببريق أنار قلبه المعتم.

(سامحتك).... هكذا قالت بعد كل ما فعله.. سامحته... هكذا قلب الأم، أم أنها أمه هي من تحمل القلب الأوسع ليحتويه بجرمه وتغفر له ما جعلها تتجرعه من مرارة أحالت حياتها لعلقم!؟ تلمسه وهو ينظر إلى وجهها الذي غافله الحزن، ورسم عليها أضعاف ما كانت سترسمه السنوات.. رفع يديه يدعو له... ذلك الرجل الطيب الذي زاره منذ عامين من دخوله ظلمة هذا السجن، بل من دخوله ظلمة هذا الذنب... والذي بحكمة وحنكة وقلب تشبع إيمانًا ويقينًا أخذ بيده إلى الندم والتوبة والنور.. أخبره أنه طبيب نفسي... لكنه قبل أن يعالج نفسه التي طوقها منذ عقود بحبال المعاصي، عالج قلبه وأحاله لبياض، وغرس بعدها فيه يقينًا وإيمانًا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.. حتى ذنبه الذي كأنما قتل به الناس جميعًا.

والآن بعد أن عرف طريق الرشاد، وسامحته من حملته في بطنها وصبرت عليه، هو مستعد تمامًا للقصاص، بل يريده.. يريد أن يتطهر من ذنبه.. لا طاقة له على مواجهتها بين يدي الله، وهي تقول: (يا ربي اسأله بأي حق قتلني).. لا مبرر لديه حينها، وهو الذي ظلمها أولاً وأخيرًا.

ظلمها بأن كان أخًا عربيدًا سكيرًا، لا يهتم لأخت ولا أم، وتركهما بلا معيل ولا سند، حتى أنها رغم أن قريناتها لا ترعى الأغنام، إلا أنها هي تفعل لأن لا أحد كان سيفعل ذلك، ليأتي يوم زفافها يقتص منها لأنها على وهمه لوثت شرفه.. وأي شرف جاء بعد إهمال ليدافع عنه!؟... فما بالك بأنها كانت أحرص عليه منه، وأطهر من الدنس الذي ظنه بها.

أغمض عينيه، وهو يرفع كفه التي كانت للتو تتحرك بالاستغفار، نظر إليها باشمئزاز، ثم رمش تكرارًا يمنع أهدابه أن تتبلل بذلك السائل الذي يغرق عينيه.

صورتها وهي تنظر إليه بخوف مازالت تزاحم نومه، يحيله من راحة إلى كوابيس تغرقه في عرق بارد ينسل منها بصعوبة، وروحه تكاد تنسل منه.

همسها وهي تقف بلباسها الأبيض برجاء أن يسمعها، وأنه فهم خطأ لم يشفع لها.

مازالت ملامحه التي غدت كمرسال جديد للشيطان تتجسد أمامه، كما كانت حينما انعكست صورته على مرآة (تسريحتها) التي لم يمهلها الغدر أن تستعملها.

منظر البندقية التي كانت لوالده، والتي كاد يبيعها مرات لولا رجاء والدته، بل لولا أنها كانت تعطيه من المال ما يعرض به عن ذلك.. منظرها وهي ترتفع في وجهها، وبدل أن تكون هي رمزًا لإعلان الطهر هذه الليلة، كانت رصاصاتها الغادرة تخترق صدرها مرة.. ومرتين.. وثلاث.

منظرها الشاحب عندما قالت بأنفاس متقطعة:

- "ظلمتني يا أخي"

مازالت تتكرر في يقظته ذكريات تلك الحادثة التي وكأنها حدثت البارحة، حية يجددها دومًا، وكأنه لا يريد أن يعيش إلا بها تؤجج نار عظيم فعلته، فيزداد قربًا من خالقه عله يتوب عليه.

☆☆☆

☆☆

☆

صرخات لا يعلم مصدرها بعد أن تهاوى جسدها على الأرض.. ونظرة فخر ارتسمت في عينيه، وكأنه البطل الذي غسل عاره.

كان ينظر إلى والدته التي ركضت نحوها، وهي تهزها ببكاء وصراخ، ثم توالت الأشخاص لكن صوت تلك الصغيرة التي تناست تواجده وهي بكامل زينتها تصرخ به، وقد تولت الدموع مسح بهرجتها التي حولتها للسواد، وهي تتجه نحوه تضرب صدره ضربات يقسم أنها تجاوزت جسده، لتوجع قلبه.

"ما الذي فعلته أيها الأحمق!!؟"

حاول أن يبعدها عنه، وهو يقول بشموخ:

- "لقد طهرت شرفي الذي دنسته تلك الفاجـ***!"

عادت تضربه، وكأنها تناست المكان والزمان، بل وتناست من هو ومن هي.

بينما صراخها يعلو:

- "ويحك أيها العربيد.. أنت من تسب تلك النقية!!؟ كيف لتلك الشفتين القذرتين اللتين لطالما احتواهما كأس النبيذ أن تشتم الطاهر.. الويل لك يا قاتل! وأنت تقذفها، وهي التي كانت تحاول أن تنقذني.. أترشق روحي بسهام لسانك النجس بعد أن قتلتها ظلمًا"

وكأن شيئًا ما ضربه بقوة، ليتراجع خطوة إلى الخلف بتساؤل:

- "ماذا تقصدين؟"

لم يجد جوابًا على سؤاله، والكل يلتفت للجسد الذي غطى بضخامته فتحة الباب، مبعدًا تجمهر النسوة حوله.. لن ينسى وجه (خالد)، وهو يراها تغرق في دمها وأنفاسها تخبو ببطء، ولم يدرك أي كلمة خافته قالتها، لكنه يذكر جيدًا ما قاله له:

- "ما الذي فعلته؟ كيف تجرؤ!؟ لم يحدث ما ظننته.. أنا حتى لم أقربها.. يا إلهى ما الذي فعلته!؟"

لكنه سكت لأن تلك الكتلة التي كانت تضربه، قد تحولت له وأخذت تحاول خمش وجهه، وضربه بكل شراسة، وهي تكاد تفقد صوتها من صراخها الذي كان أقرب للعويل.

- "لمَ لمْ تفهمها!؟ قالت إنك ستفعل.. قالت إنك مختلف عن الجميع.. وإنك ستتفهم أنه مجرد حادث وأنا أسقط من الشجرة، لتلقف هي ثقل جسدي، وتسقط على تلك الصخرة المسننة.."

☆

☆☆

☆☆☆

انقطعت أنفاسه، ولهاثه يعلو..

الذكرى تزهق روحه... تسد مجرى تنفسه..

أحاط رقبته بكفه، عله يساعدها على جذب الهواء.. لكن هيهات والنفس، كأنها تصّعد في السماء.. حرك رأسه عله يلتقط شيئًا من ذراته الذي يسبح حوله.

لكن لا مكان له، وكأن الهواء قد سحب من تلك الزنزانة الصغيرة يتبعه حتى رائحة العفن الذي خالطه لسنين، يدنس طهر أكسجينه.

مال جسده حتى صار في وضعية السجود، وأنفاسه المقطوعة تحول وجهه لزرقة قانية، وعيناه تجحظ وهي ترى أشباحًا لأشخاص غيبهم الموت.. وأخيرًا علم أنه الفراق، ومال على جنبه مدركًا أن إلى ربه المساق.. ليغيب أمله في قصاص يطهره، وحاوطته سراديب ظلمة، لم تترك إلا حركات كانت مألوفة، سمعها قبل أن يغيب السمع عنه.

☆☆☆

بعد الإفطار الذي شاركتها إياه ضيفتها، وما إن عادت من فناء المنزل للداخل، حتى التفتت على صوته:

- "هل غادرت؟"

هزت رأسها، ومازال تأثرها يتحكم بها.. نظرت إليه ودموعها تتجمع مجددًا.. كيف ستجازيه؟ كم فعل لأجلها الكثير! يكفي صبره عليها سنة كاملة بعد زواجهما، وهي تعزل نفسها عنه تحاوطها شكوكها ومخاوفها.. لم يحاول فرض نفسه عليها أبدًا،

بل كان صبورًا جدًا وهو يعاملها بلين لم تجد ربما غيره من البشر يتعامل به.. كان وكأنه يملأ قلبها بحبه قطرة قطرة بصبر وحكمة، حتى فاض بها الحب، وبدأ يغرق أوردتها التي بعث شيء مختلف من الحياة في جنبات روحها.

مازالت تذكر كيف تمكن من دك آخر حصون بينهما، وكيف عرفت معاني أخرى للشرف، وأنه انعكاس للطهر.

لاحظت اقترابه، فقالت بهمس:

- "شكرًا.."

ضحك ضحكة قصيرة، بينما يداعبها بقوله:

- "ولمَ الشكر؟"

أجابته فورًا:

- "على كل شيء.. على صبرك على ما فعلته من أجلي، ومن أجل (خالد)، ومن أجل (غالية)، وأيضا لوالدتها، وحتى شقيقها، بل شكرًا لما فعلته لأجل الجميع"

☆☆☆

يوم العيد كانت بهجته مختلفة عن المدينة بجوها الأسري الواحد بين أسر القرية التي بدأت يومها بصلاة جماعية، خرج فيها كل أهل القرية من رجال ونساء وحتى أطفال، ليؤدوا صلاة العيد في الساحة الصغيرة. وليكمل الله عليهم كرمه كان اليوم ربيعيًا، أطلت الشمس بشعاعها الوهاج الذي ملأ الدنيا ضياء ودفء، رغم قمم الجبال التي مازالت تحتفظ بالقليل من آثار الشتاء،

كدليل على قسوته، وذلك الندى الذي بدأت قطراته تتراقص على نباتات مخضرة، أحيت الأرض بعد موتها، وصوت خرير الوديان التي وصل صوتها إلى القرية، تتباهى بجليد أذابه ربيع دافئ، أما الطيور تحلق حولهم كأنها تشارك البشر عيدهم، تسبح الله في يوم العيد الأكبر.. خير أيام الله كافة.. يوم النحر.

في ساحة منزلهم كان الجو بعد الصلاة حافلاً مبهجًا يملؤه التحدي.

"هيا (عبده) سيسبقك (خالد)"

سمعت صوت (خالد) الضاحك:

- "وهل تعتقدين أن زوجك سيتفوق علي!؟ انسي يا شقيقتي.. سيكون عيبًا في حقي وأنا الذي أذبح وأسلخ منذ مراهقتي، أما زوجك فإنه تعلم ذلك منذ سنوات فقط.. إنه ابن المدينة والعز"

جاء دور (عبد العزيز) ليضحك:

- "سأفوز بإذن الله يا (خالد)، وسأجعل سنين عمرك التي تتباهي بها، وأنت تذبح الشياه وتسلخها تذهب هباء"

ضحكت بشقاوة طفولية عادت تزين وجهها:

- "المهم أنني سآكل مع من يفوز أولاً"

توقف (عبد العزيز) عن السلخ، والتفت إليها بوجهه الذي أغرقه العرق والذي لم يسلم من قطرات الدم الطاهرة التي حللت قربانه إلى الله بذبحه.

- "خيـــانة! ألم تكوني للتو تشجعينني!؟"

رفعت كتفها مجيبة:

- "إنه الجوع وأحكامه"

ضحك الجميع قبل أن يقطع ضحكاتهم الطفل الذي دخل إلى الساحة راكضًا يصرخ بكلمات غير مفهومة.

أسرع (خالد) وزوجته له، تبعتهما (شرف)، ثم (عبد العزيز)، أما والدتها فقد كانت تحمل الصغيرة (براءة) في حجرها.

"اهدأ (وسيم).. لم أفهم شيئًا مما تقوله"

سكت الطفل يأخذ أنفاسه، دون أن تتوقف دموعه المنسكبة على وجهه الشاحب.

أشار إلى مكان ما، وعاد يقول بجمل متقطعة يعيد أكثرها:

- "كنا نمرح هناك.. في الأرجوحة... وسقطت هنا.. إنها تبكي وتنزف أيضا"

وضعت (مريم) يدها على صدرها إثر النغزة المؤلمة التي ألمت به دون أن تتكلم، في حين عاد (خالد) يسأل:

- "من الذي سقط؟"

لم يكد الطفل يكمل كلمته:

- "(غالية)"

حتى هب (خالد) راكضًا، يتبعه (عبد العزيز)، بينما بقية النسوة يتلقفهن الخوف والترقب.

☆☆☆

بعد ساعة في المستشفى خرج الطبيب من حجرة الكشف.. اتجه الأربعة نحوه بسرعة، يسبقهم (خالد) وزوجته، ثم (شرف)، أما (عبد العزيز) فتأخر عمدًا تاركًا لزوجة (خالد) مساحة للاطمئنان على ابنتها.

سأله (خالد) بلهفة:

- "كيف هي وما الذي حدث لها؟"

تنهد الطبيب، بينما حاول أن يطمئنهم:

- "لقد قمنا بخياطة الجرح العميق في الفخذ.. كانت السقطة قوية.."

سكت، ثم أكمل:

- "أنتما والداها، أليس كذلك؟"

هزا رأسيهما معًا، فأكمل هو:

- "الأفضل أن نتكلم.. هناك أمر يجب أن أخبركما به"

قال (خالد)، وهو يحاول أن يتجلد، فإحساس ما يجعله يوقن أن الأمر أكبر من بعض قطب لجرح عميق:

- "نعم أكيد.. لكن هذه عمتها وزوجها الدكتور (عبد العزيز)، أريدهما أن يحضرا كلامنا"

هز الطبيب رأسه بموافقة.. أشار إليهم بأن يتبعوه.

بعدها كان الجميع يجلسون في مكتبه، منصتين بصبر إلى الكارثة التي حلت بهم، وصمت جنائزي يحوم حول رؤوسهم.. كان (خالد) يضع رأسه بين يديه، فالأمر عظيم، بينما (مريم)

تبكي على كتف زوجها، أما (شرف) فجمود يغزو ملامحها، فقط (عبد العزيز) من استطاع أن يتكلم:

- "وما العمل الآن؟ أليس هناك حل؟"

أجابه الطبيب:

- "أظنك تعرف الإجراءات دكتور (عبد العزيز)، لهذا أنصحكم بالبدء فيها مباشرة، بعد أن أسلمك شهادة بأنها فقدت عذريتها في حادث، مثبتًا نوع الحادث ووقته وسنها، ثم بعدها تذهبون به لختمه في البلدية وتوثيقه، لتأخذوا نسخة منه، ونسخة تبقى هناك.. ترجعون لها في حالة احتجتم أن تبرهنوا ذلك عندما تكبر الفتاة، وتصبح في سن الزواج"

استمع إليه الجميع دون مقاطعة، ثم سأله (عبد العزيز) مجددًا:

- "ألن نحتاج لتوقع الوثائق في مركز الشرطة؟"

نفى الآخر بقوله:

- "لا.. هذا يحدث إذا كانت الحالة حادث اغتصاب"

وقف الطبيب تاركًا إياهم يلملمون شتاتًا جزأته الفاجعة، وخرج بعد أن قال:

- "ستستفيق الصغيرة بعد ساعة من الآن.. أتمنى أن تجدكم حولها"

رفع (خالد) رأسه، وشيء من الجلَد يكسو ملامحه الشاحبة.

ضم رأس زوجته إلى كتفه أكثر، بينما يحاول زرع بعض الصبر فيها.

- "الحمد لله على كل حال.. هذا أهون من أن تفقد أحد أعضائها أو حواسها"

رفعت (مريم) رأسها.. نظرت إليه من خلف دموع بللت وجنتيها في تسابق مهول، ثم همست بثبات:

- "الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه"

وقف، وأوقفها معه.. اقترب من شقيقته التي غَيَّر الجمود ملامح وجهها، وكأنها تعيش في سراديب مظلمة تصارع فيه غول الماضي السحيق من جديد.. همس أمامها:

- "الشرف أكبر من هذا، أليس كذلك؟"

نظرت إليه للحظات، ثم هزت رأسها توافقه.

- "نعم أخي، والتصرف الصحيح والإجراءات الصحية تعزز الأمر"

خرج بعدها يحيط بيديه كلاً من شقيقته وزوجته، تاركين خلفهم (عبد العزيز) الذي همس:

- "لم.. ولن تنتهِ أبدًا قضية شرف في مجتمعنا، فنحن نحتاج أكثر للوعي والدين والتحرر من جلباب عادات جاهلية"

أغمض عينيه، وهو يسحب نفسًا قويًا، ثم فتحهما ببطء، وغادر المكتب يتبعهم بخطوات متمهلة.

☆☆☆

تمت بحمد الله وفضله

سُلاف لمين (الأمين)

(البنـ أم ـات المؤدبات)

كاتبة جزائرية.. صدر لها العديد من الروايات الإلكترونية تحت اسم (أم المؤدبات).. و(قضية شرف) هي روايتها الورقية الأولى.

✿ سلسلة (تيوليب) للجيب ✿

#	اسم العدد	الكاتبة
١	حقيقة حب	رباب فؤاد
٢	ذات الوشاح الأخضر	رانيا حجاج
٣	نصف ملاك	رباب فؤاد
٤	حكاية سرية	عبير قائد
٥	حارسة القصر	ميرفت البلتاجي
عدد خاص	عزيزة مونرو	رانيا حجاج
٦	قضية شرف	سُلاف الأمين

